12

مواطنون بسطاء

بعد نحو عام من لقائي الأول بالدكتور باهر بطي، وهو طبيب نفسي في بغداد، قمت بزيارة لبيته المرتب من بيوت الطبقة الوسطى في الدورة، وهو حي يقع جنوب نهر دجلة وتحيط به المداخن الأربع لمحطة توليد الكهرباء التي أصبحت معقلاً للمتمردين. جلسنا في غرفة المعيشة، وأخبرني د. بطي وزوجه أنهما يفكران في مغادرة العراق، بينما كانت ابنتهما تتابع فيلم كرتون عربياً عن وحش على شاشة التلفاز، حيث قام كثير من الناس الذين يعرفونهم، ولا سيما المسيحيين أمثالهم، بأخذ أولادهم للخارج. كان لبطي شقيق في الإمارات العربية المتحدة يستطيع مساعدتهم في الإقامة هناك. وكان اختطاف المتخصصين قد أصبح وباء متفشياً، لكن المشكلة كانت أساسية ويومية أكثر من ذلك أيضاً. طلب مدير المركز الصحي الأولي الذي كانت تعمل فيه بلسم طبيبة ألا ترتدي فستاناً أحمر ضيقاً للعمل. كما أمر مدير جارتهم، مدرّسة الموسيقا الشيعية، أن ترتدي الحجاب. وأُجبر بطي أن يطلب إلى صديق شيعي التدخل في خلاف وقع بعد أن خصم بطي من راتب موظف فاسد في مشفى الرعاية طويلة الأمد. هدّد الموظف البطي، وصديق البطي، الذي كان شيخ عشيرة دخل للتفاوض مع شيخ عشيرة الموظف. لم يكن للبطي شيخ عشيرة -لأنه كان مسيحياً- لذا فقد ذهب لطلب الحماية من الشيعة. كانت تلك أشياء لا يعرفها الأجانب إلا فيما ندر، لكنها كانت أموراً من الحياة اليومية للعراقيين أمثال د. بطي وزوجه.

في هذا الجو كان البطي يلجأ لقومه للمساعدة، وهم منظمة للمسيحيين العراقيين تدعى المجلس الكالدو آشوري. لم يكن من قبل يعتنق هويته الدينية، لكن ليس لديه الآن مكان يلجأ إليه. وللحصول على بضع علب من الجعة لسهرتنا معاً، توقفنا عند نادٍ مسيحي خاص كان يعرف فيه أناساً موثوقين؛ لأن معظم متاجر الخمر في بغداد قد أغلقت بعد أعمال تفجير وإطلاق نار. لم تأتِ أفكاره عن مركز جلجامش للتفكير الإبداعي وغيره من المنظمات

المدنيـة بنتيجـة. بعد يوم من العمـل وثلث سـاعة في الازدحام المـروري، كان منهكاً لدرجة أنه لم يسـتطع أن يواصـل في فكرة إقامة مجموعة حراسـة محلية للشـارع. قال بطي: «إنه أيضـاً نوع من الأنانية التي نشأت في السنوات العشر الأخيرة من حكم صدام»، كان الجميع يركّزون على نجاتهم، وعلى صـراعاتهم الخاصة. وسـرعان ما تفككت الأحزاب السياسية والمجموعات المدنية الجديدة بسـبب خلافات وصـراعات شخصية، أو انهارت بسبب نقص الطاقـة. وقد قال بطـي: إن «التكنوقراطيين» العراقيين كانوا بلا قـوة، أما الأمريكيون فقد نسوهم، حيث كان بأيديهم مشكلات أكبر.

نحو أواخر عام 2004، أصـبح شـبه مسـتحيل أن أسـتمر في العمل بالطريقة التي كنت أعمـل بها دوماً في العراق. فقد انتهى زمن تناول الوجبات الطويلة في بيوت الأفراد، وكذلك معظـم الزيـارات المنزلية من أي نوع. وانتهى زمن التجوال في الأحياء، وكذلك السـفر دون تخطيط حذر ومحدد الهدف وقصير. وانتهت المحادثات مع الغرباء في الشارع أو المشاية أو الجامعة. كنت أمثل خطراً لهم، كما كانوا يمثلون خطراً لي.

كانت إسـتراتيجية وسـائل الإعلام تجاه التمرّد تربكني، فقد أخفقت على مسـتوى فهم جمهورها، كما هو حال شـبكة العراق الإعلامية لسـلطة الائتلاف المؤقتـة. طالما أنّ الحَكَم النهائـي لحرب العصـابات هو الشـعبان العراقي والأمريكي، وطالما أنّ اسـتعداد الشـعب الأمريكـي لاحتمـال المجـزرة في العراق قـد تراجع في أثناء عـام 2004، فما سـبب إرهاب الصـحفيين الذين هم أفضـل من يسـتطيع نقل أحداث المجزرة إلى بلد المحتل ودفعهم إلى مغادرة العراق؟، كما كان المزيد من الصحافيين يفعلون، وقد سألت مرة رجل أعمال عراقياً، تربطه صـلات بالتمرّد، عن ذلك؟ واتفق معي على أن سياسـة اختطاف الصحافيين وقطع رؤوسـهم هي سياسـة خاطئة. وقال لي: «نحـن نحاول جاهدين أن نجعـل الناس معتدلين، وأن نبعدهـم عـن التطـرف»، وقد بدا رجلاً مشـغولاً جدًّا بشـركاء عمل لا يمكـن الاعتماد عليهم. ربما أراد المتمردون اسـتمرار عقلية الحصـار بين الصـحافيين في بغداد، لمعرفتهم أن الصـحافيين يميلون لرؤية الصـورة العامة بشـكل أكثر قتامة حين يتم تهديد سلامتهم. (انتقد بول وولفوفيتز الصـحافة بأنها خائفة لدرجة أنها لا تخرج لإيجاد جميع القصـص الإيجابية، وإنما تكتفي بالتصـريحات حول العراق التي كان يعتذر عنها دائماً). وربما كان

الكـره المطلق لدى الجهاديين لجميع الكفار دون تمييز، والإخفاق الأكبر للتمرد في الوصـول إلى إستراتيجية سياسية أكثر تماسكاً من الخوف، يفسّران التخويف.

كانت النتيجة أن انقطع الأجانب عن العراقيين، وبدا أن النور الذي أشعله سقوط النظام يخفته النهار، مع انسحاب العراقيين إلى الظلال التي أبقاهم فيها صدام عقوداً من الزمن. إذا أردت أن تكون صـادقاً فعليك أن تقرّ بأنك تعرف أقل وأقل عن تفكير العراقيين وظروف حياتهم. كتب روي سـتيوارت، المسـؤول البريطاني السابق في سـلطة الائتلاف المؤقتة، الذي يتحـدث اللغة العربيـة: «لا يعرف أي من الأجانب فعلاً ما يحـدث في العراق»، أنا بالتأكيد لا أعـرف ما الذي يجري في العراق. وحتى العراقيين الذين يعتمد عليهم الأجانب في شـرح ما يجري في البلاد من السياسـيين والمترجمين وأولئك الذين استطاعوا أن يغادروا، ويعودوا قد لا يملكون إلا فكرة بسيطة عن المواطنين الذين يعيشون في المناطق الريفية والأحياء الفقيرة، التي ليس فيها قوات أمن غير المتمردين أو الميليشيات.

لكن الأحداث المهمة كانت تجري هنا بالضبط: في عقول الناس العاديين. كيف يستجيب العراقيون حين تترك الوجوه الأمريكية السلطة لتحل محلها الوجوه العراقية؟ هل سيبدؤون بالنظر إلى الحكومة على أنها تنتمي إليهم وعليها أن تجيبهم؟ هل سـيجرؤون على دعمها، أو حتى المشاركة فيها، أو أنهم سيتراجعون لضمان سلامتهم؟

كانت تلك أسـئلة مجرّدة، لكنها تقود مباشـرة إلى أكثر القصص متعة، القصص التي جعلتني أعود إلى العراق باسـتمرار. برأيي كان المسـوغ الوحيد الباقي للحرب على العراق، هو إنشـاء حكومة تعطي العراقيين الحياة الأفضـل التي يسـتحقونها. يجب أن تكون حكومة ديمقراطية، لكن ليسـت مجرد ديمقراطية شـكلية. كانت تتطلب أكثر من مؤامرات القصر والصـفقات الخلفية التي كانت تشـكّل السياسـة العراقية في ظل سـلطة الائتـلاف المؤقتة والحكومـة الانتقاليـة. كانت تتطلـب مشـاركة الناس العاديين الذين أصـبح من الصـعب جـدًّا معرفتهم. فـإذا بقيت حتى نهاية عـام 2004، أي نية للاسـتمرار في تغيير العراق مع الانفجارات الضـخمة والإصابات الفظيعة ومع اكتشـاف المقابر الجماعية يومياً، فلن يكون الفضـل للنخبة السياسـية الأمريكية أو العراقية. وإنما سـيكون للعراقيـين العاديين الذين استطاعوا الاحتمال بعد كل ما عانوه سابقاً.

كانت المشكلة طوال الوقت أن أقوى الناس في العراق هم المتطرفون المسلحون والميليشيات. أما أكثر العراقيين انفتاحاً فقد كانوا الأضعف. منذ البداية، تطورت السياسة العراقية بشكل مشوّه وخدّاع، مع أن معظم ذلك ليس غريباً بعد حكم الحزب الواحد. كان في القمة رجال في الستينيات أو السبعينيات من العمر، ومعظمهم يمثلون أحزاب المهجر السابقة الذين كسبوا التأييد من الخطوط العرقية أو الطائفية الضيقة. (توقف أحمد الجلبي الذي لم يكن لديه أي دعم من أي نوع داخل العراق عن الحديث عن الحقوق العامة، واتصل بالكتلة الشيعية، وأصبح بطل مقتدى الصدر، وأعاد ثروته بعد أن تخلت عنه حكومة الولايات المتحدة وداهمت منزله في بغداد. حتى أقسى منتقدي الجلبي كان عليهم أن يحترموا انتهازيته الفطنة). كان هؤلاء هم السياسيين الذين تعامل معهم الأمريكيون –بصفة وسطاء بينهم وبين الميليشيات المسلّحة– مهما كان الحديث عن الديمقراطية الليبرالية في البنتاغون والبيت الأبيض ومجالس الخبراء وفي كتابات كنعان مكية. سخّر بريمر ومساعدته ميغان أو. سوليفان وقتهما وطاقتهما في تشجيع قادة الأحزاب الشيعية الدينية كحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذين كان لديهم آلاف الرجال المسلّحين. زار المسؤولون الأمريكيون بيوت هؤلاء القادة وأولوهم اهتماماً خاصاً في مجلس الحكم، على أساس أن سلطة الائتلاف المؤقتة إذا استطاعت إبقاءهم تحت جناحها، فيمكنها إحداث أثر في النتيجة النهائية.

لكن بدلاً من ذلك، في الشوارع، حيث كانت سيطرة الأمريكيين ومعرفتهم قليلة، تبارت ميليشيات الأحزاب الدينية على السلطة مع أتباع مقتدى الصدر. وتم الاستيلاء على المساجد والمشافي والمدارس من قبل رجال مسلحين يهتفون بشعارات مشؤومة، وتم تهديد النساء لمجرد أن مظهرهن غير إسلامي أو حتى لخروجهن من البيوت. داخل المنطقة الخضراء، دارت مفاوضات طويلة حول دور الإسلام وحقوق النساء في الدولة الجديدة، أما خارج المنطقة الخضراء، فقد كان هناك رمز اجتماعي قاسٍ يتم فرضه من قبل الميليشيات. ثم كان هناك التمرّد السنّي الذي حرص على ألا يجرؤ على الظهور في الاجتماعات العامة إلا أكثر المواطنين شجاعة وإخلاصاً.

في هذه الظروف، كان من المستحيل نمو شيء يشبه الحياة المدنية الطبيعية. كان العراقيون الذين يأمل بهم المرء يخرجون للسطح، أما أولئك الذين لديهم أفكار ديمقراطية

أكثر لكن ليس لديهم مؤيدون أقوياء فقد كانوا يبتعدون، بانتظار أن يروا كيفية سير الأمور. مرة قال لي طبيب عجوز متصلب، كان مستقلاً كردياً في مجلس الحكم: «الميليشيات ورجال الدين الشيعة وأثرياء الحرب هم الذين يحكمون العراق الآن. أما المواطن البسيط فلا يسمح له أن يحصل على حقوقه، أو يتكلم بحرية عما يريد». وكان يلقي جزءاً من اللوم على الأمريكيين. «إنهم لا يهتمون كثيراً بالمواطن العراقي البسيط. بل يهتمون بزعيم العشيرة هنا والملا هناك، ورجل الدين هنا، ورجل الميليشيا هنا، وزعيم الحزب هناك».

كان من الممكن إيجاد عراقيين يتقدمون للمطالبة بمستقبل بلادهم السياسي. كان عددهم قليلاً، ولا يقارنون من حيث المال والسلطة بالأحزاب والميليشيات، وكانوا في اعتقادي أقوى الناس على وجه الأرض. وفي بعض الأحيان كان هناك أمريكيون مستعدّون لدعمهم.

كان المعهد الديمقراطي الوطني منظمة تحصل على تمويل كبير من قبل الحكومة الأمريكية ومنضمّة للحزب الديمقراطي، كانت تعمل باستقلال نسبي، تحت إشراف المؤسسة الوطنية للديمقراطية. وكان هدف المعهد إيجاد «المواطنين البسطاء» في مكان كالعراق ومساعدتهم للمشاركة في الحياة السياسية الديمقراطية. وكان هذا عملاً غامضاً لا يحصل على تمويل كافٍ، لكن إدارة بوش كانت تحاول أن تُغدق نصف مليار دولار على العراق لبرامج «بناء الديمقراطية» قبل الانتخابات الوطنية. وقد جعل تصعيد العنف إنفاق المال أمراً صعباً.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ذهبت إلى الحلة التي تقع على بعد تسعين ميلاً جنوب بغداد، مع مجموعة من العراقيين والأمريكيين الذين يعملون في المعهد الديمقراطي الوطني. وقد ذهبنا بعربات غير مصفّحة، ودون حرّاس. في المقعد الخلفي لإحدى السيارات كان يجلس ديفيد ديتمان المستشار السياسي من أوهايو، وكان يرتدي بذلة بحرية زرقاء، وربطة عنق بلون السلامون ونظارات، وكان شاحباً ويدخن بشكل متواصل. كان ديتمان الذي كان في الثالثة والثلاثين ولديه حس دعابة متوتر ناقد للذات يذكّر بشخصية جاك ليمون، قد عمل سنوات عدة بنجاح بصفة مستشار حملة. ثم فرّ ناجياً بنفسه من المجلس التشريعي للولاية على أنه ديمقراطي، وتعرّض للاتهام، ثم أدرك الحقيقة. وقد قال: «إن سبب اتهامي هو أنني آمنت بالعملية فعلاً». فقرّر أن يترك عالم الموظفين ذوي الدم البارد،

وأصبح أحد المبشّرين بديمقراطية المعهد الوطني للديمقراطية، وحصل على وظيفة في أوكرانية (حيث أثمر عمله في نهاية عام 2004، بالثورة البرتقالية التي أطاحت بالحكومة الأوكرانية الفاسدة). ومما أفزع زوجه ووالدته ورئيسه أنه جاء إلى العراق أسبوعين لتدريب المجموعات على تحفيز الناشطين في الأحزاب السياسية في بغداد وتكريت والحلة.

جرت ورشة العمل في الحلة في المقر السابق للشرطة السرّية الذي أصبح مركزاً لحقوق الإنسان. كان أربعون عراقياً -بينهم أستاذ علوم سياسية ومدرّب رياضي عاطل عن العمل- قد جاؤوا وعرّضوا أنفسهم للخطر لحضور التدريب. كانوا ينصتون باهتمام شديد ويسجّلون الملاحظات بعناية، بينما كان ديتمان يقف حانياً كتفيه، أمام أوراق الرسم البياني ويقدّم برنامجه المكوّن من عشر خطوات حول تطوير الرسالة والاتصال بالناخبين. وكانت ميساء النعيمي، وهي من الموظفين الأعضاء في المعهد الوطني للديمقراطية، تترجم بشجاعة المصطلحات الغريبة للحملة: «وسائل الإعلام المكسوبة»، «إستراتيجية الاتصالات»، «قضايا الأساس والدعائم». وقد سبق أن قال لي ديتمان: «السياسة هي فن جعل الناس ينتخبونك. وهذا قابل للتطبيق في جميع أنحاء العالم. ولو لم يكن كذلك، لما كان لي عمل».

بعد ساعتين من النقاش، رفع عراقي يده وقال: «هذا يريني أننا نقوم بتحوّل من الديكتاتورية إلى الديمقراطية. ويعطيني شعوراً جيداً. لكن السؤال هو الآتي: هل ستترك الحكومة الأمريكية الأمر لنا؟ أم أنها سترمي إلينا بشخص ما؟ هل ستضيع هذه الجهود كلها؟».

في الخارج، سمعنا صوت انفجار -نيران أسلحة هاون- ثم انفجار ثانٍ أقرب، وبعد ذلك إطلاق نار. نظر ديتمان من النافذة، وابتسم ابتسامة إنذار عريضة.

فسأل أحد الحاضرين: «هل يجيب ذلك عن السؤال؟».

قال ديتمان: «أنا لست من الحكومة. أنا من المعهد الوطني للديمقراطية. علينا أن نذهب لتناول الغداء. هل يمكن أن نتحدث عن هذا فيما بعد؟».

وبعد الغداء عاد ديتمان إلى السؤال، فقال: «برأيي أنه إذا كانت أمريكة قد قامت بغزو العراق فقط لتضع ديكتاتوراً صديقاً لها، فستكون أرواح العراقيين والأمريكيين التي فقدت

جميعها قد ضاعت سدى. لقد أيّدت الغزو؛ لأنني أعمل في مجال الديمقراطية. أنا لا أعرف شيئاً عن أسلحة الدمار الشامل -ولا أعرف إن كان أحد يقول الصدق أم لا- لكنني أعرف بالفعل أن الشعب العراقي يستحق الحرية. لا أستطيع أن أقول: إن الأمريكيين لن يفعلوا شيئاً خطأً؛ لأنهم قد فعلوا كثيراً من الأخطاء في هذا الاحتلال. وأنا آسف لذلك، لكن هناك سبب لوجود المعهد الوطني للديمقراطية هنا، وهناك سبب لأننا لم نحضر دبابة. نحن أقل الأمريكيين تسليحاً في الحلة. نحن هنا لثقتنا في كرمكم. لأن الديمقراطية شيء جيد وصحيح». وتابع قائلاً: «وإذا كان هناك سبب آخر لخوض هذه الحرب المؤلمة، فسأغضب جدًّا. المشكلة أنني لا أستطيع فعل الكثير. أنا مجرّد أمريكي متغطرس يرتدي بذلة، ويقف أمامكم. وأنا لم أعانِ بقدر ما عانيتم. أنتم وحدكم تستطيعون بناء الديمقراطية هنا. لكن لو فكرت مجرد تفكير في أن أمريكة ستسرق الحرية التي نحارب لأجلها، لكنت بقيت في بلادي مع زوجي وقضيت وقتاً طيباً».

سأله أحدهم: «ألا تقضي وقتاً طيباً هنا؟».

«بلى، أنا أمضي وقتاً طيباً. لكنني أفتقد زوجي».

كان خطاباً من القلب، واستقبل بالتصفيق. ثم تمتم رجل يجلس بجانبي قائلاً: «وضع شخص بريطاني اسمه هامفر خططاً قبل عقود للرؤساء الذين سيتعاقبون على حكم العراق».

كان الناس في القاعة ينتمون إلى ما سمّاه د. شاكر، الطبيب الشرعي في مشرحة بغداد، «مستوى التفكير المتوسط». لم يكونوا من رجال الدين، ولا من رجال الميليشيات، وكانت بعض الأحزاب التي ينتمون إليها لا تضم أكثر من سبع مئة عضو. لم يكونوا يشبهون الليبراليين الغربيين؛ كانوا يريدون في حكومتهم ديناً أكثر مما قد يفضّله أعضاء مجلس المعهد الوطني الديمقراطي. لم يكن هناك إلا ثلاث نساء في الحضور. وكان ذكر هامفر الجاسوس البريطاني المفترض الذي يلقى عليه اللوم لكثير من المشكلات في العالم الإسلامي، يظهر أن هؤلاء العراقيين كانوا عرضة للشعور بانعدام القوة ونظريات المؤامرة التي يبرزها كمعظم الآخرين. لكن الأهم هو أنهم قرروا بالفعل أن يكون لهم دور في الحياة السياسية.

كان من بين المشاركين جودت العبيدي، ضابط الجيش السابق من الحلة. كان قد هرب من العراق بعد اشتراكه في التمرد الشيعي عام 1991 وانتهى به المطاف في بورتلاند بأوريغون. فأنشأ شركة ليموزين صغيرة هناك، وفي عام 2003، باعها وعاد إلى العراق عضواً في ميليشيا جمّعتها قوة الغزو الأمريكي. وفي العراق، أنفق العبيدي 150.000 دولار من مدّخراته لإقامة ائتلاف من نحو مئتي حزب سياسي صغير لمنافسة الأحزاب الكبيرة في الانتخابات الوطنية. جمع برنامج الائتلاف بين برنامج عمل إسلامي معتدل وبين الوطنية العراقية واحترام الحقوق الفردية، وهو مزيج معتدل بشكل مقصود بدا مصمّماً ليحصل على دعم واسع.

كان في الاجتماع أيضاً زوجان من قرية المحاويل، ذات الشوارع القذرة والمستنقعات المالحة التي تقع على بعد بضعة أميال شمال الحلة: عماد داود الذي كان يعمل في محل يبيع مواد البناء، وزوجته سعاد التي حصلت على شهادة في إدارة الأعمال في بغداد، لكنها لم تستطع إيجاد عمل، وهي الآن تقوم بتربية أولادها الثلاثة. شأنها شأن بقية النساء في الاجتماع، وكانت تغطي رأسها.

شرح زوجها الأمر لي قائلاً: «نحن نذهب إلى كل مكان معاً».

فقالت سعاد: «أي زوجين مثقفين يفعلان ذلك».

وأضاف عماد: «طبعاً لدينا دين، ونحن نسير وفق القواعد. لا يقول دين الإسلام: إن المرأة لا يمكنها الاختلاط بالرجال، لكن لكل شيء حدود».

أشارت سعاد إلى أن الإسلام لا يحرم النساء من المشاركة في السياسة: «ينبغي أن يكون للنساء دور في كل شيء».

كان قمع الانتفاضة الشيعية عام 1991 وحشياً، وبصورة خاصة في الحلة. وفي عام 2003 اكتُشِفت مقابر جماعية تضم آلاف الضحايا في محيط المدينة. وقد فقد كل من سعاد وعماد شقيقاً وعدداً من الأصدقاء. لم يكونا يعرفان إلا القليل عن مضمون الدستور الانتقالي للعراق، لكنهما كانا يعرفان جيداً معنى العيش في ظل حكم صدام. قال عماد: «كان الأمر أشبه بمطرقة تنزل على رؤوسنا كل يوم، ثم قاموا بتخليصنا منها».

كانت عائلة داود تنظر في وقت من الأوقات إلى الأمريكيين بوصفهم أبطالاً محررين، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً. فحسب قول عماد، بينما كان الاحتلال يستقر، ومع الانقطاع المستمر للتيار الكهربائي وانتشار الجرائم، كان الشعور بالتعاسة يتحول إلى نوع من الجنون. وأضافت سعاد: «الأمور تسير نحو الأسوأ هنا. طبعاً لو كانت هنالك ديمقراطية لاختلفت الأمور».

قال عماد: «لكن الديمقراطية تحتاج إلى وقت طويل، لأننا نعيش منذ زمن طويل تحت حكم صدام».

قالت سعاد: «معظم الناس لا يفهمون فكرة الديمقراطية. إذا سألت أي شخص عن الديمقراطية، فستجد معظم الناس يقولون: وماذا سأفعل بالديمقراطية؟ أعطني الأمن أولاً».

قال عماد: «أعرف شخصاً أطلق رصاصتين عشوائياً، وقال: أليست هذه حرية؟» أما فيما يخص محاضرة ديتمان، فمن الواضح أن هذين الزوجين كانا يعتقدان أن حضور الأمريكيين للقائهم في الحلة يعني شيئاً. فقد شعرا أن ديتمان قدم لهما الكثير من المعلومات المفيدة. كانت شكايتهما الوحيدة هي عدم وجود امتحان في النهاية، لاختبار كم تعلما عن الديمقراطية.

كانت فرص حصول الأشخاص الذين حضروا الاجتماع في الحلة على أي نجاح فوري في المرحلة السياسية ضعيفة. وقد قالت مارينا أوتوويه، الخبيرة في منحة معهد كارنيجي للسلام الدولي في واشنطن: إنه بعد سقوط الديكتاتوريات: «تجد دائماً كثيراً من الأحزاب السياسية التي تتشكل، ولا تصل إلى شيء، ولهذا السبب -تضيف أوتوويه- كان المعهد الوطني للديمقراطية «يقوم بشجاعة بشيء لا جدوى منه أبداً». لكن النجاح في الانتخابات لم يكن المقياس الوحيد لتأثير المعهد. فقد شعرت في الحلة أن مجرد إقامة نقاش عن الديمقراطية، وسط إطلاق النار، يتم فيه الأخذ والعطاء بين العراقيين والأجانب، هو إنجاز بذاته. وقد قال ليس كامبل، مدير المعهد الوطني للديمقراطية في الشرق الأوسط: «حتى بوجود جميع المشكلات في العراق، هناك مساحة في المجتمع المدني، وتنظيم للأحزاب أكثر من أي دولة عربية ذات نظام وسيادة». ووصف كيف كان الموظفون الأعضاء في المعهد الوطني العراقي، مثل ميساء النعيمي قد بدؤوا بالازدهار الفكري. «حتى وسط القتل الرهيب، ومع

أن التخطيط والإدارة لا يزالان مجرد نكتة، فهناك شيء مهم يجري هنا. وأنا أشعر بالمرض إذا فكرت أنه قد لا ينجح».

عدت إلى العراق مرة أخرى في يناير/ كانون الثاني 2005. كانت الانتخابات التي طالب بها آية الله السيستاني منذ سقوط النظام ستُجرى أخيراً. حيث أصبحت إدارة بوش من أقوى المدافعين عنها، بعد أن قاومتها نحو سنة ونصف السنة وتم تحديد تاريخ 30 يناير/ كانون الثاني 2005 موعداً نهائياً لإجرائها.

كانت هناك أسباب وجيهة لتأجيل الانتخابات، فقد كانت أكثر الجماعات تسليحاً وتنظيماً، التي تحصل على التمويل من إيران وسورية والسعودية متفوقة بكل معنى الكلمة على المجموعات الأقل طائفية أو تشدداً، كتلك التي رأيتها في الحلة، وهناك أمثلة في التاريخ الحديث –منها البوسنة– حيث أبقت الانتخابات المندفعة لما بعد الحرب ببساطة أقل القوى ديمقراطيةً في السلطة سنوات قادمة. كان خبراء الأمم المتحدة حذرين من الانتخابات المبكرة شأنهم شأن المسؤولين الأمريكيين. لكن كما في كل الخطط الأخرى المتعلقة بالعراق، خرجت الأمور عن السيطرة وغطت على الأفكار البراقة للناس في واشنطن وبغداد. وبدأ المسؤولون السابقون في سلطة الائتلاف المؤقتة يقولون في جلساتهم الخاصة: إن الخطأ الكبير كان الإخفاق في إجراء انتخابات محلية في بداية الاحتلال. فلو استطاع العراقيون انتخاب مجالسهم المحلية بعد سقوط النظام مباشرةً، ثم انتخاب مجالس المحافظات، وأخيراً حكومة وطنية، لأصبحوا مشاركين في السياسة العراقية بطريقة لم تحدث من قبل، وربما كان الاحتلال قد سار بشكل مختلف تماماً. لكن الوقت كان متأخراً جدًّا لوضع تصوّرات بديلة.

بدلاً من ذلك، كانت الانتخابات الديمقراطية الأولى في البلاد ستُجرى بعد نحو سنتين من الغزو، في ظروف أقل من مثالية. وحتى بعد أن خلّص هجوم القوات البحرية في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 الفلوجة من سيطرة الجهاديين، بدا أن المتمرّدين قد اكتسبوا مزيداً من القوة، حيث وسّعوا من حجم عملياتهم من محافظة الأنبار إلى الموصل، وسيطروا على مناطق كبيرة من بغداد. كان في واشنطن معرفة تقليدية جديدة: وهي أن حرب العصابات مشتعلة في العراق كاملاً، كما أن أمريكة تخسرها (نقل عن كولن باول أنه قال ذلك لأصدقائه). كان على العراقيين الانتخاب تحت التهديدات المباشرة. سجّل الإرهابي الأردني أبو مصعب

الزرقاوي تصريحاً، تم نشره على شبكة الإنترنت، أعلن فيه الحرب على الانتخابات العراقية، ووصف فيه الديمقراطية بأنها شكل شرير من أشكال الشرك الذي يستبدل بالله سياسيين، وأنها مؤامرة «صليبية» و«رافضية» شيعية. انتشرت أوراق مجهولة في العاصمة العراقية تهدّد بـ «غسل شوارع بغداد بدماء الناخبين. إلى من يظن أن بإمكانه أن ينتخب ويهرب، سنتبعكم كظلّكم ونمسك بكم، وسنقطع رؤوسكم ورؤوس أطفالكم». في معظم أنحاء العراق، كانت العناصر الرئيسة للحملة الانتخابية -كالاجتماعات العامة، والتثقيف الانتخابي، والاستعراضات، وجمع الأصوات من البيوت- شبه مستحيلة. أبقت القوائم البرلمانية أسماء معظم المرشحين سرّية لحماية أرواحهم، وكان الناخبون لا يكادون يعرفون من يختارون لتمثيلهم. أعلن فريق من المراقبين الدوليين أنهم سيقومون بمراقبة الانتخابات العراقية من عمان، التي تبعد مئات الأميال في بلد آخر. عرّفت الإدارة مشروعها للديمقراطية في الشرق الأوسط بانحدار شديد لدرجة أنه بدا أن الانتخابات ستكون ممارسة دموية.

كانت عمان نقطة الدخول والخروج في رحلاتي إلى بغداد. وكانت لحسن الحظ مدينة مملّة تعمل فيها إشارات المرور، وليس فيها نقاط تفتيش. في فندق الفور سيزنز، كانت موسيقا المصعد وأغطية السرير المقلوبة والإفطار المفتوح رفاهية كما في الأحلام. كان موظفو الاستقبال مدرّبين أن يقولوا: «أهلاً بعودتك، سيد باكر»، وكنت أشعر براحة دائماً حين يرحّب بي شخصياً في مكان لا أحتاج فيه إلى حارسي. كانت مدينة عمان الوديعة، بجوّها الجبلي الجميل ونسائها العربيات اللواتي تضعن صبغة شقراء، تبدو للعراق في مدة مثل بانكوك. في قاعة الاستقبال الفاخرة لفندق الفور سيزنز تجد دوماً الصحافيين في طريقهم لدخول العراق أو الخروج منها، وموظفي الإغاثة الذين يقضون أوقاتهم في أثناء متابعتهم أعمال العنف، ومسؤولي الحكومة العراقية الذين يعقدون الاجتماعات التي يمكن أن تكون خطرة جدًّا في بغداد، والمغتربين العراقيين الذين يغطسون في الكنبات، ويحتسون القهوة التركية، وينظرون حولهم بنظرات تآمرية غامضة.

مع حلول عام 2005 كان في الأردن ما لا يقل عن ثلاث مئة ألف عراقي، وكانت أسعار الإقامة في عمان قد ارتفعت بشكل كبير. كان بعضهم من الفارّين من العنف، بعد تجربة قاسية عادة كالسرقة أو الاختطاف في الماضي القريب. وكان آخرون يأتون للحصول على

متنفس، وكأن الأردن منتجع يستطيع العراقيون الأثرياء الذهاب إليه؛ ليريحوا أعصابهم. كما كان هناك آخرون من السنة غير الراضين عن النظام الجديد للأمور في العراق الذي يتم فيه الموازنة بين الشيعة والأكراد في السيطرة على البلاد. كان لبعض هؤلاء السنيين ارتباطات بالتمرّد؛ وكان بعضهم من قادته.

مكثت في عمان بضعة أيام هذه المرة قبل الذهاب إلى بغداد. أردت أن أتحدّث إلى السنيين، الأمر الذي أصبح صعباً وخطراً داخل العراق. كان معظم قادتهم -الذين كانوا تشكيلة من سياسيي الأحزاب والأئمة المحافظين- مقاطعين للانتخابات. وكان بعض المرشحين قد انسحبوا تحت التهديد، كما أجرى بعضهم حسابات سياسية فوجدوا أن المقاطعة والعنف سيخفضان عدد الأصوات إلى مستويات مهينة. أما المتشدّدون فقد رفضوا فكرة إجراء انتخابات تحت الاحتلال كلياً. لكن خسارة الجماعة السنّيّة للسلطة كانت دوماً جزءاً من الأسباب المحرّكة للتمرّد، ومع اقتراب موعد الانتخابات كانت صفتها الطائفية تزداد وضوحاً. كان الجنوب الشيعي والشمال الكردي متحمّسين للتصويت. أما في الوسط السنّي، إذا أراد الناس أن يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، فقد كانوا يخفون خططهم الخاصة بيوم الانتخابات. لم تتوافر بعد لدى السنّة، القيادة السياسية الحقيقية القادرة على إقناع الجماعات المسلحة والناس غير المنخرطين في العمل المسلح بأن اللعبة السياسية كانت أملهم الوحيد. تناولت العشاء مع غسان سلامة، المستشار السياسي السابق لسيرجيو فيرا ديميللو، في إحدى الأمسيات في عمّان. وحين ذكرت الحالة السياسية غير المتطورة عند السنّة في العراق مقارنة بمثيلتها عند كل من الأكراد والشيعة، أجاب سلامة طالباً مني أن أسمّي قائد الطرف السنّي في الحرب الأهلية اللبنانية، وقال لي: «لن تستطيع؛ لأن السنة لا يرون أنفسهم طرفاً بين الأطراف المتنازعة. إنهم يرون أنفسهم قوة. ويعدّون أنفسهم ورثة الإمبراطورية العثمانية، وهذا لن يتغير».

قابلت مجموعة من السنّة من محافظة الأنبار كانوا على علاقة بشكل ما بالتمرد، عن طريق موظف في السفارة كان بعثياً سابقاً مقرباً من عدي. كان اثنان منهم شيوخ عشائر من الرمادي، أما الثالث فكان رجل أعمال شاباً، كانت هناك أقاويل بأنه كان أحد التجار الذين استفادوا من صدام. كان لقاؤنا في مكتبه في شركته في شارع هادئ من شوارع عمان. كان

رجل الأعمال، طلال الكَعود، حاصلاً على شهادة ماجستير في إدارة أعمال البناء من جامعة USG، يرتدي الجينز وحمالات للبنطال، وكان على اطلاع على أحدث المقالات في الصحافة الأمريكية. ذكروا جميعاً أنهم حريصون على بناء عراق ديمقراطي. لم يكن لديهم شيء ضد الأمريكان؛ لقد حلموا طويلاً بالأشياء الجيدة التي يمكن لأمريكة أن تجلبها للعراق، ورحّبوا بسقوط النظام، قال الكَعود: «أنا مؤمن بالنوايا الطيبة لدى الأمريكيين، ولكن شيئاً ما قد حدث في الطريق من واشنطن إلى بغداد». حرب العصابات هذه كلها سوء حظ، ولم تكن لتحدث لو أنصت الأمريكيون لأناس مثلهم بدل غزو بيوتهم والعبث بكرامة نسائهم وإرغام العراقيين على طلب الثأر.

أقرّ الكعود بأن بعض المتمرّدين يعيشون في القرون الوسطى، وهم المتطرفون الذين أساؤوا إلى سمعة الباقين. لكن المقاومة الشرعية، كما كانوا يسمّونها، كانت مقاومة عراقية ضد الاحتلال. وكانت تضم مئتي ألف شخص، وإذا استمرّت الانتخابات فإن أعدادهم ستتضاعف عشرة أضعاف، حسب قول الكعود. وستصبح الحرب الأهلية حرباً فعلية. لم يكن هؤلاء هم السفاحين المقنّعين الذين تخيلتهم. كانوا عراقيين يسهل تمييزهم، من شيوخ العشائر التقليديين، ورجال الأعمال الحديثين، وكان لهم صلات بعالمي أكثر مما تصوّرت.

ثم بدأ ما تحت السطح بالظهور، فقد ادّعى الشيخ زيدان خلف العواد، أن السنّة هم الأكثرية في العراق (63 بالمئة). وقال الشيخ: «لو استقرّ السنة في أمريكة لحكموا أمريكة. نحن نمسك العصا من الوسط دوماً. نحن نستطيع تحريكها بأي شكل فنحن نتحكم بها». أما السياسيون الذين يسرعون للحصول على المنصب في العراق، من الأكراد والشيعة، فقد كانوا بيادق غير شرعية بيد الأمريكيين أو الإيرانيين، وإذا تعرّضوا للاغتيال فسيكون ذلك سيئاً جدًّا لهم.

وزّع الكعود نسخاً من بيانات المقاطعة الصادرة عن العشائر السنية الرئيسة.

سألته: «ماذا لو أراد بعض الناس من العشائر الانتخاب؟».

- «لا يستطيعون فعل ذلك».

- «ماذا سيحصل لهم؟».

- «إذا ذهب أحد للانتخاب فسيقتل».

نظر ضابط الهجرة في مطار عمان إلى جواز سفري، ونظر إلي، وأشار إلى صدغه قائلاً: «العـراق، العراق. رأس، لا رأس». كان لذلك عدة تفسـيرات لكن أيـاً منها لم يكن مطمئناً. ومع ذلـك فقد كانت الطائرة المغادرة إلى بغداد بطاقمها الجنوب إفريقي ممتلئة، لقد كان هنالـك دائماً أناس مسـتعدّون للذهـاب إلى العراق في الغالب سـعياً وراء المال. لاحظت في المقاعد حولي مجموعة من متعاقدي البناء الشقر يتحدثون بلهجة جنوبية، ويرتدون قبعات البيسـبول، ومجموعة أخرى من حراس الأمن الأقوياء صـغار السـن مع أجهزة iPod، وفي الخلف كان هناك عراقيون وأشخاص من جنوب شرق آسية. في الصف الأول جلس هوشيار زيباري، وزير خارجية العراق الكردي، كانت الصـحفية الجالسـة بجانبي تمضغ قطعة من العلكـة وكأنها كانت مصـممة على تدميرها. لم يتكلم أحد، قـال ربان الطائرة بمرح ولكن: «سنتبع طريقاً ملتوياً إلى أن نصل إلى بغداد، وعندما نصبح فوقها سنهبط».

كانـت بغـداد في حالة من الفزع. كان في الطريق حواجز أكثر من أي وقت مضـى، وكان عـدد أكـبر من طائرات الأباتشـي يحلق فوق المدينـة على ارتفاع منخفض. وكانت عربات الهامفـي الأخيرة من القوافل الأمريكية تعرض إشـارات باللغتين العربية والإنكليزية تقول: «ابقـوا علـى بعد 100 متر وإلا سـنطلق النـار». وكانت صـورة حملة رئيس الـوزراء علاوي والتحالف الذي شـكله آية الله السيسـتاني تغطي الجدران وتتدلى من أنوار الشـوارع، لكن حديـث الانتخابات كان يـدور كله حول التدابـير الأمنية وحمامات الدم. قضـيت ليلتين في فندق الرشـيد، مما يعني أنني نمت أول مرة داخل المنطقة الخضـراء، وكوني محجوباً عن العراق لم يزد إلا شعوري بالقلق. كان فندق الرشيد تحت إمرة الملازم إي. أي. ستروسكي، من الجيش الاحتياطي ومرفق بوفالو للكهرباء. كان ستروسـكي رجلاً عصبياً ضعيف البنية له شـاربان كبيران، وكان يسـأل كل زائر جديد: «هل تريد غرفة في جانب الرصـاص أو في جانب الهاون؟» وكانت قواعد الفندق تنص على عدم إدخال أجهزة اتصـالات إلى الغرف، وعدم استقبال الزوّار، وعدم الحديث مع العسكريين، والابتعاد عن الطوابق الأخرى والبقاء خـارج المطعـم. وقال ستروسـكي: «أنتم هنا لـلأكل والنوم في مكان آمـن. إذا حدث هجوم بالصـواريخ أو قذائف الهاون فادخلوا إلى الحمام. وسـيأتي غورخا؛ ليشرح لكم ما يحدث.

لأسـباب أمنية، طُلب إلي أن أوقع باسـم «ستروسكي 494#». قال ستروسكي: «انسوا المنطق هنا»، بدا أن الحرب قد دخلت مرحلة فيلم M*A*S*H: ففي زيارتي اللاحقة، أتوقع أن أرى الملازم ستروسكي يرتدي ثوباً.

كانـت وجهتي مدينة البصـرة، المدينة الشـيعية الثانيـة في العراق، التي تقـع في الزاوية الجنوبيـة الشـرقية للبلاد. كنت أريد أن أرى الانتخابات في مـكان يمكن فيه التجوال ببعض الحرية، ويكون للناس فيه شـأن بالسياسـة أكثر من القتل. سافرت إلى البصرة بطائرة نقل عسكرية بريطانية. فقد كانت البصرة في القطاع البريطاني. وكان ذلك يهمّني أيضاً.

كان شـكل الأنوار يدل على أن الخليج العربي لا يبعد أكثر من سـاعة. كان مسـتوى الماء في منطقـة الأهـوار عاليـاً لدرجـة أن البصـرة كانت تعتمد علـى نظام الأقنيـة للري. لكن القنـوات كانت مسـدودة، وفي أحد أيام الشـتاء غمرت الأمطار الغزيـرة أحياء كاملة بعدة أقدام من الماء والصـرف الصـحي، وبعد أسبوع انحسر الفيضان، فصارت الشوارع مغطاة بالوحـل، وجعلت المدينة صـورة للإهمـال. كان الفقر في البصـرة المحاطة بمعظم خزانات النفط العراقية بالإضـافة إلى مزارع منتجات التصـدير، على مسـتوى إفريقية أو آسـية. كانت البيوت الطينية المنتشرة بشكل غير قانوني تتزاحم للحصول على مساحة وسط أكوام القمامة للشقق الشيعية، كانت تؤوي عائلات طردت من الأهوار التي جفّفها صدام بعد عام 1991. كان مركز المدينة يغص بالمتاجر المتهاوية وأنقاض المباني الإسـمنتية الحكومية التي قصـفتها الضـربات الجوية الأمريكية في أثناء الغزو. قرب مسـجد أشـار، كانت مجموعة إسـلامية قد سيطرت على حديقة فيها ناعورة وديناصور غيّرت الشمس لونه. كانت المباني المنهوبـة تطل على ضـفاف شـط العرب الذي تصـب فيه ميـاه دجلة والفـرات إلى الخليج العربي. وباتجاه الخليج، كان القصـر الذي تغطيه القباب والذي بناه صـدام ويقال: إنه لم يزره إلا مرة واحدة. وتحتله الآن السفارتان الأمريكية والبريطانية.

في مساء معتدل منعش، زرت الكورنيش، وهو حي قديم على طول شط العرب، وكان خلفي صف من الجدران الإسمنتية التي أصابها القصف. كانت أسراب من طائر البلشون الأبيض تطير فوق سـفن صـيد المهرّبين الصـدئة التي تطفو بجانب حطام مركب للطيران البحري العراقي. كان القمر يرتفع فوق أشـجار النخيل على الضفة الأخرى، وقد اختفت إيران على

بعد أميال قليلة خلفها، وكان من الممكن أن أتخيل المدينة التي خلفي بصفتها مركزاً غنياً للتجارة العالمية، كما كانت سابقاً. ربما كان تاريخ البصرة الحديث أكثر مأساويةً من أي مدينة أخرى، غير أن هذا التاريخ نفسه قد جعل البصرة مؤهلة لتكون أرض تجارب لمستقبل القوى السياسية في العراق.

في عام 1982، في السنة الثانية من أطول الحروب التقليدية التي شهدها القرن العشرون، تسلل ضابطان صغيرا السن من الجيش العراقي، يوسف الإمارة ومجيد الساري، وهما من البصرة، كل على حدة، عبر الحدود وهربا إلى إيران، البلد المعادي للعراق. كان إمارة رائداً في الثالثة والثلاثين من العمر، وساري ملازماً في العشرين من عمره. كانا مثل أغلبية سكان جنوب العراق من الشيعة، لكن فيما عدا ذلك كانا مختلفين جدًّا عنهم. كان إمارة ممتلئ الجسم ملتحياً ذا رأس دائرية، مع طبع حذر يميز الرجل الذي انخرط مدة طويلة في العمل السياسي السري، وهو مسلم ملتزم وتوجد لديه علامة من أثر الصلاة في منتصف جبينه. كان هدفه من اللجوء هو القتال لنشر الثورة الإسلامية الإيرانية في بلاده. أما ساري، فقد كان غير ملتحٍ، متأنقاً في ملبسه يضحك ويبكي بسهولة، وهو مثل بعض الشباب في مقتبل العمر كان يحب أن يشرب الخمر ويلاحق النساء. كانت البصرة في ذلك الوقت ميناءً عالمياً وتحوي محال بيع البهارات مملوكة لتجار من جنوب آسية ونوادي ليلية يعمل فيها عمال مصريون وزبائنها كويتيون؛ كانت مكاناً مناسباً له، حتى اندلعت الحرب. غادر ساري العراق؛ هرباً من وحشية نظام صدام ومن الحرب العبثية التي نشبت.

التقى إمارة وساري أول مرة في بلدة إيرانية شرق طهران، حيث قررا مع مجموعة من المنشقّين العراقيين الآخرين تشكيل مجموعة معارضة، ولكنهما لم يستطيعا الاتفاق على تسميتها مجموعة الضباط الأحرار، أو كما أراد إمارة، حركة الضباط الإسلاميين الأحرار. وفي النهاية فاز جناح إمارة، وتمت تنحية ساري من المنظمة التي أصبحت تحت سيطرة الحرس الثوري الإيراني وتمت تسميتها فيلق بدر؛ تيمناً بالمعركة الحاسمة التي جرت عام 624 للميلاد، حين استطاع الرسول محمد ﷺ وأتباعه هزيمة كفار مكة، على الرغم من التفوق العددي لأعدائهم.

أصبح إمارة قائد المدفعية في جيش بدر. توسّعت الميليشيا مع انضمام سجناء الحرب: فقد ضغطت إيران التي أسرت في النهاية نحو سبعين ألف عراقي على الشيعة الذين أسرتهم للانضمام إلى إخوانهم الفرس ضد الطاغية المرتدّ الذي كان يقتل قادتهم الدينيين في مدينتي النجف وكربلاء المقدّستين. كان قلة من العراقيين الشيعة راغبين في تقديم عقيدتهم الطائفية أو مصالحهم الشخصية على ولائهم الوطني، على الرغم من أن أولئك الذين رفضوا واجهوا سنوات طويلة من السجن. قاد إمارة أولئك الذين غيّروا ولاءهم إلى المعركة، في الأهوار شمال البصرة. عرف لواء بدر بالشراسة، ولم يشعر إمارة بالندم لقتل العراقيين.

وجد ساري بسرعة أنه لا يحب إيران الثورية أكثر من العراق الفاشي، وانتقل إلى باكستان. وفي عام 1985 اعتقلته المخابرات الباكستانية وسلّمته للعراق. أمضى ساري سنتين في سجن «أبو غريب» وسجون أخرى أسوأ منه. كان في سجن انفرادي مدة سنة ونصف السنة، بعد أن حُكم عليه بالإعدام، كان يشاهد أصدقاءه يؤخذون للإعدام بينما كان ينتظر المصير ذاته. لكن في عام 1987، أصدر صدام الذي كان يخسر الحرب، وكان بحاجة إلى مزيد من القوة البشرية، عفواً عاماً، ووجد ساري نفسه من جديد جندياً في الجيش العراقي. خدم في الحرب في مدينته البصرة في وحدة للدفاع الجوي. كانت البصرة في ذلك اليوم على الخطوط الأمامية، فقد كانت القوات الإيرانية على بعد سبعة أميال فقط، وكانت باستمرار تقصف المدينة عبر شط العرب. كان صدام قد شنّ الحرب ليستولي على الممر المائي ولمنع آية الله الخميني من إثارة الغالبية الشيعية المضطهدة من الثورة وتكوين الجمهورية الإسلامية العراقية. لكن حين انتهت الحرب العراقية الإيرانية عام 1988، بعد ثماني سنوات من الموجات البشرية والهجوم بالغاز، ومع هطول الصواريخ على العاصمتين، ومع أكثر من مليون إصابة، بقيت الحدود حيث كانت عام 1980 تماماً: في منتصف الممر المائي. قال إمارة حين التقيته في مكتب ساري في البصرة قبل الانتخابات مباشرة: «لم يربح أحد، وسل صداماً لأجل ماذا كانت الحرب».

جاءت الحرب الثانية إلى البصرة عام 1991، حين طردت قوات التحالف بقيادة أمريكة قوات صدام من الكويت. كان ساري قد أمضى ثلاث سنوات في بيته يقرأ التاريخ والشعر،

وقد كان خائفاً من مغادرة المنزل، كما أن سجلّه جعل من الصعب أن يقبل في عمل. حين بدأ جنود الجيش العراقي المهزوم بالعودة نحو الشمال سيراً على الأقدام من الكويت إلى المدينة، منهكين وجائعين، باع بعضهم أسلحتهم لأهل البصرة مقابل علبة من السجائر أو مبلغ مالي يكفي للوصول إلى بيوتهم في الشمال. وفي صباح 2 آذار، وصل قريب ساري إلى بيته ومعه أخبار بأن شباباً كانوا يحاولون في أثناء الليل إطلاق سراح مجموعة من أصدقائهم من السجن في الحيانية، الحي الفقير الواسع جنوب المدينة، قد استولوا على قسم الشرطة وبدؤوا بمهاجمة مكاتب حزب البعث. كانت النساء في الشوارع تصرخن: «يسقط صدام!» انجرف ساري في انتفاضة عفوية. لم يكن لديه ما يخسره، وفجأة، لم يعد هناك ما يخشاه. قال ساري: «لم يكن ذلك قراراً، وإنما كان كحركة تاريخية لي. فيما يتعلق بي سمعت أن الناس بدؤوا يتحرّكون ضد النظام وتحركت أنا بدوري. هاجمت مبنى المخابرات». سمّى ساري الانتفاضة العراقية «عشرة أيام من السعادة».

في اليوم الرابع من الثورة التي امتدت إلى مدن أخرى، ظهر رجلان يرتديان بذلات سوداء أمام جمع من الناس قرب مسجد في منطقة التميمية. وصلا بسيارة تويوتا لاند كروزر تحمل لوحات من طهران. كانا يتحدثان بلهجة منطقة الحدود الإيرانية، حثّ الرجلان سكان المنطقة على تشكيل نقاط تفتيش حول المدينة وإيقاف تقدّم جنود الحرس الجمهوري الذين أرسلهم صدام لإحباط الثورة. كما طلبا من نساء البصرة ارتداء عباءات سوداء طويلة. في الوقت نفسه تقريباً، تم إرسال خلية استخبارات من لواء بدر عبر الحدود من قبل المعارضة الشيعية المنفية في طهران، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، لتنظيم الانتفاضة الفوضوية ولإعطائها تركيزاً أيدلوجياً. ظهرت صور آية الله محمد باقر الحكيم، القائد الديني، في أنحاء البصرة، مع صور آية الله الخميني.

بعد سبعة أيام من بداية الانتفاضة، مع اقتراب الحرس الجمهوري من مركز المدينة، كان ساري يشرف على المعارك المنظمة في الشوارع، حين لمح وجهاً مألوفاً عن بعد: كان ذلك وجه يوسف الإمارة الذي كان في مهمة استطلاع للتحضير لهجوم مئتي مقاتل من لواء بدر على الساحة الرئيسة في البصرة وساحة البحرية. كان ساري يشك في لواء بدر، وكان قلقاً من أن الانتفاضة التي بدأت حركة شعبية دون قالب طائفي -التي كان أول شهدائها،

حسب قوله، شخص سني من الرمادي- سيسيطر عليها الشيعة المتدينون تحت السيطرة الإيرانية. ومع ذلك رحّب برؤية إمارة بعد قرابة عقد من الزمن. قال ساري: «كنا في حرب. وكنا بحاجة لأي مساعدة». كان إمارة بعيداً، فلم يستطع ساري أن يتحدث إليه، لكن ساري كان يعتقد أن إمارة وغيره من أفراد بدر سيمدّون المقاتلين المحليين بقاذفات صواريخ الكاتيوشا. ولم يتحقق هذا أبداً.

في الواقع، أمر قائد من قادة لواء بدر إمارة بسحب رجاله من البصرة والعودة إلى طهران. قيل له: إن مروحيات الجيش العراقي كانت تضرب المدينة بالنابالم. يتذكر إمارة: «فكّرت: لماذا علينا أن نعود إذا تم استهداف عدد من الأفراد؟ كان الوضع مثالياً، وحين قلت هذا لقائدي، وجدت أنه لم يهتم. كان بارداً. لم أفهم ذلك حتى هذا اليوم». لكن ساري رأى أن إيران كان لها دور في الانسحاب. كانت الحكومة في طهران تخشى أن يكون صدام قد نصب فخاً لعملاء إيران.

في اليوم العاشر، انسحب إمارة وخلية بدر، وحسب قول قائد الانتفاضة، فقد منع الجيش الإيراني معارضي صدام العراقيين من عبور الحدود. بقي بضع مئات من العراقيين المحليين في البصرة لمقاومة الحرس الجمهوري، فيما وصل إلى مهمة انتحارية. كان الرجال يشنقون في سبطانات الدبابات، وأطلقت النار على آخرين حتى الموت، ودفنت جثثهم في مقابر جماعية. سمح وقف إطلاق النار بين الولايات المتحدة والعراق لصدام باستئناف استخدام الطائرات المروحية المسلحة وقصف المدنيين الفارّين. ذُبح عشرات الآلاف من العراقيين في الجنوب. وكتب على دبابات الحرس الجمهوري شعار ساخر: «لا شيعة بعد اليوم».

في 17 مارس/ آذار، هرب ساري إلى الكويت، ووصل أخيراً إلى معسكر سجن أمريكي في السعودية، ومن هناك ذهب إلى المهجر في السويد، حيث ألّف كتاباً عن الانتفاضة بعنوان (الموت القادم من الغرب). كان العنوان يشير إلى غرب العراق، الأراضي العراقية السنّية التي كانت مركزاً لقادة الحرس الجمهوري. لكن كان هناك إشارة أكبر. فقد شعر ساري، شأنه شأن جميع من حدّثوني قصة الانتفاضة في البصرة، بالخيانة من أمريكة وإيران. قبل الانتفاضة بأسبوعين، كان بوش الأب قد طلب إلى العراقيين الإطاحة بصدام، وكانت النشرات التي تسقطها الطائرات الأمريكية تحث على الأمر ذاته. في الأيام الأولى

للانتفاضة ظن العراقيون المنشقّون أن الجيش الأمريكي كان في صفّهم. قدّم الجنود الأمريكيون المتمركزون جنوب البصرة في البداية المساعدة الطبية والغذائية للناس الذين يغادرون البصرة، وهاجمت الطائرات الأمريكية الدبابات العراقية. لكن المنشقّين الذين تحدّثت إليهم قالوا: إن الولايات المتحدة توقفت عن دعمهم فجأة. قال لي شخص عراقي: «طلب منا بوش أن نثور. وحين قمنا بالثورة، تم اصطيادنا». سأل بصراوي هرب إلى الحدود الكويتية الضباط الأمريكيين هناك: «هل تستطيعون مساعدة الناس الذين يموتون؟» فأجاب أحد الضباط: «نحن جيش ليس هناك ما نستطيع فعله. هذه هي السياسة».

لم تكن منطقة حظر الطيران التي سمحت للأكراد في الجبال الشمالية بالنجاة وتشكيل منطقة مستقلة ذاتياً ذات فائدة للشيعة في الأهوار والصحراء المنبسطة. قال أحد قواد الانتفاضة واسمه مفيد عبدالزهراء: «لم يدخل صدام حسين البيوت بالطائرات، كان يدخل سيراً على الأقدام، وبالسيارات». كان مفيد يدير مجموعة من المحاربين القدماء الذين تؤكد شهادات عضويتهم أنهم «من المشاركين في الانتفاضة، وقد أسهم بكل ما يملك وضحى بروحه، وبما يملك لإنقاذ المدينة، حتى اللحظة الأخيرة التي انتهت فيها الانتفاضة، حين اتّحدت قوى الشر، الأمريكيون والبعثيون». بقيت المرارة حول أحداث 1991 قوية في البصرة، وساعدت في تفسير الحذر الذي استقبل به الشيعة، الأكثر فقراً وحرماناً من الحقوق، الغزو الأمريكي عام 2003. وفي رأي الكثير منهم، جاءت هزيمة صدام متأخرة اثني عشر عاماً.

عاد كل من إمارة وساري إلى بلدهما بعد سقوط صدام، لكن كما أنهما قد حاولا دفع الانتفاضة في اتجاهين منفصلين، فقد عادا من طهران وأستوكهولم برؤيتين مختلفتين بشدة للعراق الجديد: إحداهما إسلامية، والأخرى علمانية. أصبح إمارة وساري، الثائران السابقان، رجلين في منتصف العمر يرتديان بذلات مقلّمة. كان لواء بدر الذي أصبح اسمه منظمة بدر، يعمل بحرّية في البصرة -فالمحافظ عضو في منظمة بدر- وأصبح إمارة من كبار المسؤولين فيها. قبل أسابيع قليلة من يوم الانتخابات، تم تعيينه في مكتب وزارة الدفاع في المحافظة، الذي كان ساري موظفاً فيه أيضاً. كان من أولى تحركات إمارة في عمله الجديد زيارة لمكتب ساري قبل ثلاثة أيام من الانتخابات. كان لديه عمل سياسي يناقشه.

جلسا تحت لوحة جدارية تحيي ذكرى الانتفاضة، بعد إقناع ساري نفسه: كانت الصور التي فيها تؤكد على الصفة الوطنية للانتفاضة، حيث كان عليها شمس سومرية وسيف عربي وخنجر كردي، ورموز العمال والفلاحين. لم يلحظ إمارة أنه كان يعرف الرجل الجالس خلف المكتب، ولديهما تاريخ مشترك، إلى أن ذكّره ساري، ثم أمضيا عدة ساعات يتحدثان عن الماضي التعيس.

بعد أن انتهى الحديث، وصل إمارة إلى النقطة التي أراد طرحها. كان يريد من ساري أن يوقف اتهامات الوزارة لإيران بالتدخل في الانتخابات. كان من المحتمل أن تحصل الأحزاب الدينية الشيعية على السلطة بعد الانتخابات، قال إمارة، مضيفاً: إن من مصلحة ساري أن يتعاون إذا أراد الاحتفاظ بمنصبه. لكن تجربة البصرة منذ سقوط صدام جعلت ساري يشك في الأحزاب السياسية. قال ساري لإمارة: «هذه هي الحقائق، نحن لا نختلق الأمر. إيران تتدخل». ولأنه وطني عراقي، لم يكن يرغب في التظاهر بالتحالف مع أناس يعملون عملاء لإيران. قال ساري بعد أن أوصل إمارة إلى خارج المكتب: «نحن ننظر إلى الأحزاب التي من إيران، نحن نأخذ العراقيين الصالحين. ونترك الآخرين».

بعد غزو عام 2003، عاد أكثر من مئة ألف من العراقيين الشيعة الذين هربوا أو أبعدوا إلى إيران، في أثناء حكم صدام، إلى جنوب العراق. وجاءت معهم الأحزاب السياسية الإسلامية التي كانت تمثل المعارضة الشيعية في الخارج: المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجناحه العسكري، منظمة بدر، حزب الدعوة، الحزب الشيعي الأقدم الذي أبيدت كوادره داخل العراق تقريباً في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته وأحزاب أصغر مثل منظمة ثأر الله، وكان بعضهم مسلحين تابعين للمخابرات الإيرانية.

احتلت الأحزاب الدينية المباني الحكومية في البصرة، وشكّلوا ميليشياتهم، وانتظموا أسرع من أي من المجموعات المحلية الأخرى، باستثناء أتباع مقتدى الصدر ذوي الأغلبية الفقيرة والعنيفة. اتصلت الأحزاب الدينية بسرعة مع الجيش البريطاني، وملأت قوات الشرطة الجديدة بكوادرها، وسيطرت على الحكومة المحلية في المحافظة. قال لي مسؤول بريطاني: «كانت لدى الأحزاب المدعومة من إيران رؤية إستراتيجية، هي الاستيلاء على الجنوب سياسياً، والتعاون مع الائتلاف، ودعم مركزها الديني في النجف، ثم احتلال مركز

للحصول على القوة الوطنية، أعتقد أنهم نجحوا دون دعم واسع، ولهذا فقد توسّعوا كثيراً. وليس بسبب دعم كثير من الناس في الجنوب للأحزاب».

فرضت الأحزاب الدينية أيدلوجيتها الصارمة على البصرة، حيث عزلت كثيراً من السكان الذين كانوا حذرين من رجال الميليشيات الذين وقفوا في صف إيران في أثناء الحرب التي سببت كثيراً من المعاناة للمدينة. كانت الميليشيات تغتال البعثيين، وتتحرش بالنساء اللواتي يجرؤن على خلع الحجاب، وتغلق بالقوة متاجر الأقراص المضغوطة في البصرة ومتاجر الخمر التي يملكها النصارى. طالب أساتذة الجامعة المتحمّسون بفصل الرجال عن النساء في الفصول الدراسية، وأخبرني طالب يدرس الموسيقى أنه لا يستطيع إلا أن يدرس النظريات الآن؛ لأن العزف على الآلات الموسيقية يعدّ غير أخلاقي من قبل الإسلاميين. لم تتقبل الطبقات ذات الثقافة العالمية في البصرة الأعراف الاجتماعية القسرية بسهولة، على الرغم من أن المدينة قد أصبحت محافظة بشكل متزايد تحت ثقل الحرب والحصار وتأثير إيران. كانت حكومة المحافظة تعد عاجزة وفاسدة على نطاق واسع، حيث يروى أن منتجات النفط كانت تهرّب إلى أسواق الخليج. كانت لدى البصرة التي طالما أهملتها بغداد فرصة لتصبح محرّك ازدهار اقتصادي في العراق؛ لكونها تحوي احتياطياً كبيراً من النفط، ومزارع النخيل، وميناء له موقع إستراتيجي. في مكتب المحافظ التقيت ممثلاً لشركة كويتية تخطط لإنشاء برج مكاتب من ثمانية وستين طابقاً -ليسمى برج التجارة العالمي- واستثمار بقيمة 5.5 مليار دولار. لكن العنف والحكومة السيئة كانت تعوق ذلك في الوقت الحاضر.

قضيت عدة أيام مع الجيش البريطاني في البصرة وحولها. كان معظم الجنود مدربين على تكتيكات مكافحة التمرّد في إيرلندة الشمالية، وكان وضعهم في جنوب العراق مختلفاً تماماً عن وضع الأمريكيين في الشمال. كانت عرباتهم أصغر وأقل تسليحاً، وكانوا يضعون قبعات في الدوريات التي يسيرون فيها على الأقدام، وكانوا بشكل عام يبدون مرتاحين أكثر جدًّا بين العراقيين. كان بإمكان السيارات المحلية العبور بين قوافلهم دون الخوف من إطلاق النار عليها. حتى إن بعض الجنود البريطانيين كانوا يهزّون رؤوسهم لرؤية حادث على الطريق السريع قرب النصيرية، حيث أطلقت قافلة أمريكية تسير دون أضواء النار على

مركبات بريطانية تسير خلفها. في حانة الجنود خارج القاعدة الجوية البريطانية (فعلى عكس الأمريكيين، كان يسمح للبريطانيين بالخروج لتناول البيرة مرتين في الليلة، وكان ذلك يبدو أساسياً للمحافظة على معنوياتهم العالية)، قال لي عريف: «الأمريكيون لا يفكّرون. إنهم فقط يقومون بردود أفعال. وحين يأتون إلى هنا للتبادل فعلينا أن نقول لهم: ليس هناك خطر بعد. حين يصبح هناك خطر، سنخبركم. وحتى ذلك الوقت، اهدؤوا».

«سأشعر بخيبة الأمل إذا رأيت جندياً بريطانياً يشارك في محادثة أو تفاوض، وهو لا يزال يرتدي النظارات الشمسية»، قال لي الرائد ألان ريتشموند من الحرس الملكي في رحلة إلى جنوب البصرة إلى ميناء أم قصر. كان التدريب البريطاني للعراق يشمل بعض التعليمات اللغوية والتعريف ببعض الأمور الثقافية الحساسة (لا تظهر أسفل حذائك، ولا تمدّ يدك اليسرى، ولا تنظر إلى النساء). «أنت تريد أن تكون مقبولاً -بلطف، بلطف- تريد أن تكون قادراً على الكلام مع الناس؛ لأن الأمور تتم بهذا الشكل».

قال الرائد سايمون جونز: «هذا يأتي أيضاً من خمسين عاماً من الانسحاب من الإمبراطورية، هناك مخاطر فيما نفعله هنا، لكن الفائدة على المدى البعيد مهمة مقارنة بالمواجهة المطلقة. ومع ذلك، في نقطة معينة، عليك أن تقاتل». وأضاف بسرعة أن البريطانيين ربما لم يكونوا ليحققوا هذا النجاح في مدن معادية أكثر مثل بغداد أو الموصل التي يتعرض الأمريكيون فيها للهجوم بشكل مستمر. حين انتقلت إحدى وحدات الحرس الملكي إلى قطاع قريب من الفلوجة تمهيداً لهجوم أمريكي على المدينة، قتل انتحاري ثلاثة جنود عند نقطة تفتيش، وعلى الفور شدّد البريطانيون قواعد الاشتباك لديهم.

كان من الواضح أن التصور في العراق -الاحتلال، وإعادة الإعمار، ومكافحة التمرّد- كان أسهل للجنود البريطانيين مما كان للأمريكيين. أخبرني عدد من الضباط أن هذه الأنواع من العمليات كانت في صلب التعاليم العسكرية البريطانية ودورها في عالم ما بعد الحرب العالمية الباردة. في المقابل، كان الضباط الأمريكيون في العراق يريدون العودة إلى العمل الحقيقي للجيش، وهو التدريب على الحرب وخوضها، أو أنهم فهموا أن العراق هو عملهم الحقيقي، لكنهم اعترفوا أيضاً بأن هذا لم يصل تماماً إلى قيادتهم العليا. كان للعراق تأثير جوهري

بين صغار الضباط من ملازمين ونقباء ومساعدين، وكان كثير ممن التقيتهم يعلّمون أنفسهم ويعلّمون بعضهم كيفية القيام بذلك بالشكل الصحيح. لكن حتى جون بريور عاد من العراق، وهو يعرف أن تجربته الطويلة في الزعفرانية ستحقق له بعض الفوائد في مهنته.

كانت النتيجة وجود احتكاك أكبر بين الجنود الأجانب والمدنيين العراقيين في البصرة مما في المناطق التي تحتلها القوات الأمريكية. في الوقت نفسه، كان بعض السكان المحليين يتذمّرون من أن البريطانيين لم يكونوا راغبين في فرض النظام في البصرة. في أغسطس/ آب 2004 في أثناء ثورة عمّت البلاد لجيش المهدي، تخلى الجيش البريطاني عن سيطرته على المدينة لأتباع الصدر الذين كانوا مدعومين من قبل رئيس الشرطة. وفي جنوب العراق، الذي كان تحت سيطرة غير أمريكية منذ عام 2003، كانت سلطة الحكومة ضعيفة بشدة، وكانت عدة ميليشيات شيعية تتمتع بحرية الدخول والخروج في الشوارع.

كان موضوع الدور الإيراني في العنف السياسي والاضطهاد الديني في البصرة موضوعاً كئيباً. على حد زعم ماجد الساري كانت الإجابة بسيطة، فقد قال: «ليس هنا (تأثير) إيراني في البصرة. هناك احتلال إيراني غير مباشر في البصرة». كانت الأحزاب الدينية العراقية عميلة للاحتلال، أضاف ساري، بالرغم من أنه ميّز بين المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة، اللذين يعتمدان على طهران مثلاً، وبين الأحزاب الأصغر التي كانت تعمل بصفة أسلحة مستأجرة. وقال: إن إيران كانت تريد أن تمنع إقامة ديمقراطية ودولة علمانية في البلد المجاور لها، كما أنها كانت تأمل «أن تضع قوات الجيش الأمريكي داخل غيمة من الفوضى العراقية؛ حتى لا تستطيع ضرب إيران بالقوة العسكرية». وقد زعم عدد من الناس في البصرة أن منزل الحاكم الاستعماري القديم في الكورنيش كان محتلاً من قبل عناصر الاستخبارات الإيرانية. وحسب قول مسؤول غربي، فقد كانت حقائب الأموال تنقل باستمرار عبر ما كان يفترض أنه حدود دولية. وحين قام رئيس الوزراء إياد علاوي بزيارة للبصرة في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004، سأل المحافظ: «لماذا لا ترفعون العلم الإيراني فوق مكاتبكم؟» ومع ذلك لم يبدُ أن أحداً كان يعرف من هم الإيرانيون. قال مزارع اسمه ماجد موسى، كان يحضر اجتماعاً تثقيفياً للناخبين في حرم جامعة البصرة: «إنهم لا يأتون إلى هنا على هيئة إيرانيين يحملون الأعلام».

كان المسؤولون البريطانيون يرون أن لدى إيران مصلحة شرعية في العراق: وهي تأسيس دولة جوار مستقرة وصديقة. قال سايمون كوليز، القنصل البريطاني في البصرة، عن الأحزاب الدينية: «هذه المنظمات لها ارتباطات مع إيران بالفعل. هل هي ملك لإيران؟ لا أعتقد ذلك. إذا أردت أن تحارب الاستبداد في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، فإن إيران هي العنوان. ليس من الواضح لي أن هذه الروابط التي كانت ولاتزال بينها وبين إيران بلا شك تعني أن هناك رجال دين في (قم) يستطيعون تحريكها عن بعد». كما أقرّ مسؤول بريطاني لم يكشف عن اسمه: «لقد وصلت إلى رأي أننا لا نستطيع أن نعرف الغرباء. فأنظمة اتصالاتهم أكثر سرعة ودقة من أنظمة اتصالاتنا. نحن نفخر بالبريد الإلكتروني وأجهزة الحاسوب التي لدينا. لكنها أبطأ جدًّا من الكلام المنقول شفهياً».

في مشفى الأمومة والطفولة في البصرة بمنطقة الجزار، كان د. محمد نصير، مدير المشفى، يقاوم الأحزاب الدينية التي استولت على المشافي الأخرى في المدينة وعلى الحرم الجامعي فيها. كان لنصير وجه قاسٍ وشعر ناعم من الخلف، فكان يبدو كويليس ستارك في رواية «كل رجال الملك/ All the King's Men لبرودريك كروفورد، كان يبدو أشبه بسياسي منه بمدير مشفى. لم تكن في مشفاه صور دينية، ولم تكن هناك إلا الملصقات التي تدعو إلى الانتخابات التي تحمل صور اللجنة الانتخابية ومناظر المروج المبهجة داخل إطارات ذهبية كانت فيها في الماضي صور صدام حسين. في عام 2004، كانت إحدى الميليشيات الدينية قد طلبت استخدام جدار من الآجر؛ لتغطيه بالإعلانات السياسية. فقال نصير: «عودوا صباح الغد». وفي ذلك اليوم هدم الجدار. وبعد بضعة أشهر، تم ضبط إحدى الممرضات، وهي تشاهد فيلماً خليعاً مع صديقها موظف الاستقبال. وحين أمر نصير بنقل موظف الاستقبال إلى مشفى آخر، ذهب أصدقاء الموظف إلى مكتب الصدر في المدينة، وشكوا أن نصيراً قام بتمزيق صور محمد صادق الصدر، والد مقتدى الشهيد. تحدّى رجال الميليشيا الطبيب وطالبوه بإلغاء أمر النقل. ذكر نصير بتسلية: «قالوا: إنه يجب محاكمتي من قبل محكمة دينية في النجف»، سلّح نصير نفسه، واستخدم قوة الأمن في المشفى، وواجه الدخلاء بأعصاب قوية.

أصبح المشفى الآن نموذجاً للنظام. قال نصير حين كنا نمشي في الممرات، وزرنا جناح التغذية الجديد الذي بنته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ضمن مشروع إنقاذ الأطفال:

«نحـن بحاجـة إلى أناس محترفين لديهم خبرة في عملهـم، ولا ينتمون إلا للعراق، وليس لأي مجموعة، ويتمتعون بالشجاعة»، كان الدكتور يعلّق الآمال على انتخابات ديمقراطية وحكومة قوية لإنقاذ العراق من الفوضـى. وكان ذلك النوع من العلمانية يدور حول القانون والنظام: كان يريـد أن يمارس الطب دون تدخّل ديني. وقال: «ليس لدينا حل وسـط. فإما أن تسـتمر الحرية أو أن البلاد كلها سـتدمّر. إذا تكلمت فسـأتكلم. إذا حاربت فسأحارب؛ لأن عليك أن تحمي نفسك. وإذا متّ فعليك أن تموت بشرف. يجب ألا تموت جباناً».

على بعد نصـف ميل في الشـارع نفسـه، أمام مقر حزب الفضـيلة، وضـع أحدهم لافتة كبيرة ذات ألوان زاهية: عليها صـورة رجل عجوز له لحية بيضاء، يقف أمام سماء مشتعلة، ويدفع قارباً محملاً بالمهاجرين عبر محيط بلون الصحراء نحو مرقد الإمام علي ذي القبة الذهبيـة في النجـف. كان ذلك الرجل هو والد مقتدى الصـدر. فمؤسـس حزب الفضـيلة، آيـة الله محمـد اليعقوبي، ادّعى أن والد مقتدى اختاره خليفـة له، قبل قتله على يد العملاء البعثيـين، وبذلـك يكـون اليعقوبـي، وليس مقتدى، هـو الوريث الأصـلي للشـيعية العراقية المتشـددة. كان لحزب الفضـيلة العدد الأكبر من الأتباع من الطبقات المثقفة المتدينة الذين كانوا يريدون حكومة إسلامية صارمة، ولكنها مستقلة عن إيران.

جلس د. حيدر محسـن الطبيب الشاب المتحمّس المختص في الطب الباطني تحت صورة لآية الله يعقوبي وشـرح فلسفة حزب الفضيلة، بينما كان في الغرفة المجاورة موظفو الحملة مـن الرجال ذوي اللحى والسـتر الجلدية يأتون ويذهبون في موجة نشـاط قبل الانتخابات. قال محسن: «فكرة جان جاك روسو، وأفكار الثورة الفرنسية: نعتقد أن هذه الأفكار مناسبة للمجتمع الأوروبي، لكن المسـافة بعيدة جدًّا بين العراق والمجتمعات الأوروبية، بين الإسـلام والثورة الفرنسـية». وقـال إن الإمبريالية الثقافية هي أخطر أنـواع الإمبريالية، وإن العراق بحاجـة إلى مقاومـة موجـة المعنويات المنخفضـة والفردية المنتشـرة القادمة مـن الغرب. قال محسـن: «من الأسـباب التي أدت إلى خسارة فرنسـة في الحرب العالمية الثانية الحرية الجنسية»، وأضاف بسرعة أن أسلمة العراق يجب أن تتم بوسائل ديمقراطية دستورية كاملة تحترم حقوق الأقليات الدينية. كان محسـن أيضـاً لا يثق في التصـميم الإيراني والأمريكي للعـراق، وقال: إنه ليس هناك بلد سـوى العراق، يمكن أن يحوي كل هذه المصـالح بداخله.

ويعتقد محسن أن الانتخابات ستسمح للعراق بأن يجد التوازن المثالي بين الدولة والمسجد، بموافقة الشعب كاملاً.

كان ماجد الساري يعبّر عن الرأي المعارض بقوة. قال ساري: «جميع التشريعات الإسلامية منذ زمن النبيﷺ وحتى يومنا هذا لا تظهر قبولاً للديمقراطية، أروني أي بلد فيه قيادة إسلامية يمكن أن يقبل أشخاصاً ديمقراطيين. أين يمكن أن يحدث ذلك؟ في السعودية؟ في إيران؟ لا أعتقد ذلك، لا. أما العلمانيون والشيوعيون، فقد قبلوا الديمقراطية. لا أعتقد أن الأحزاب الإسلامية ستقبل من يعارضها». وشبّه ساري فكرة الحكم الشيعي القائم على حزب واحد في العراق باستبداد حزب البعث. وقال لهذا السبب: «الدين شيء بين الإنسان وبين الله، ويجب أن يكون بعيداً عن السياسة». وأضاف ساري الذي كان محاطاً بما لا يقل عن ستة من رجال الحرس الوطني لحمايته: «أنا الوحيد الذي يستطيع أن يقول هذا في البصرة، وأنا أعلم ذلك، في أي وقت، يمكن أن أتحول إلى دخان؛ لأنهم يمكن أن يفجّروا مكتبي».

كلمة «علماني» هي تعبير جديد مشتق من كلمة «عالم». ولم تكن تسمع غالباً على الملأ؛ لأنها لدى كثير من العراقيين تعني «ملحداً». وكما قال هاشم الجزائري، عميد كلية الحقوق في جامعة البصرة: «هذا ليس وقتاً مناسباً للإلحاد. الله يغفر، لكن الناس لا يغفرون. لا أدري إن كنت سأذهب إلى الجنة أم النار، لكنني أستطيع أن أقول: اللهم، اغفر لي. أما هنا فإن الناس لا يغفرون».

في البصرة، لم تكن المواجهة بين الأطباء ورجال الميليشيات، وبين التكنوقراط والأحزاب الدينية، مجرد أسلحة وملصقات. في الأيام التي سبقت الانتخابات، أصبحت البصرة مسرحاً لصراع سياسي ملتهب بين لغات وأفكار متنافسة. فكرة مجتمع قائم على القيم الإسلامية والسلطة الدينية التي كانت تعني من كل بدّ رؤية طائفية شيعية، جسّدتها القائمة رقم 169 التي كان الناس يسمونها قائمة السيستاني؛ لأن آية الله العظمى كان قد تنبأ بتشكيل ائتلاف شيعي. وفكرة مجتمع قائم على القانون المدني، تكون الأسبقية للعراقيين

على الهوية الإثنية والدينية، في محاولة لمعالجة الانقسامات العميقة في البلاد، كانت تمثلها القائمة رقم 285، التي يرأسها إياد علاوي. لم يكن الناس يحبّون علاوي نفسه كثيراً، لكنهم ببساطة كانوا يقولون: إنه رجل مثقف، طبيب، مما بدا تجسيداً لمجتمع علماني. لكن السيستاني كان أكثر رجل موقّر في العراق، بالرغم من أنه كان إيرانياً، ولم يكن مرشحاً لأي شيء. كانت هناك تناقضات وأوهام في كلا الطرفين. كان مؤيدو علاوي يتحدّثون عن حكومة جيدة بالرغم من أن إدارته كانت متّهمة بالفساد بشكل كبير، أما مؤيدو القائمة 169 فكانوا يتحدّثون عن اتباع المرجعية، بالرغم من أن السيستاني الذي تظهر صورته على كثير من ملصقات القائمة 169، لم يدعم رسمياً القائمة التي كان له دور كبير في تشكيلها. لم تقل فتواه إلا أنه على المسلمين والمسلمات واجب ديني هو أن ينتخبوا.

كانت البصرة بشكل ما تسبق بقية مدن العراق. ففي المدن الأخرى كان السؤال هل ننتخب أم لا؟ أما في البصرة فقد كان السؤال هو هل ننتخب السيستاني أو علاوي، حيث كان فيها العنف على مستوى يمكن التحكم فيه نسبياً، حيث وقعت جريمتا قتل لمرشحين علمانيين، وثلاثة أو أربعة تفجيرات لسيارات، وبعض الهجمات على مراكز انتخابية، وإشاعات عن توجه الجهاديين نحو الجنوب من المناطق السنّية لإثارة الفوضى في يوم الانتخابات.

كتبت الأحزاب الدينية أغنية لحملتها الانتخابية مع الآلات الموسيقية، وكانت تذيعها عبر مكبرات الصوت من قوافل من الشاحنات الصغيرة:

على جميع الناس انتخاب القائمة 169

لأنها تضم من كانوا في السجون

الذين دفن آباؤهم وإخوانهم في المقابر الجماعية،

والنساء اللواتي قدّمن أبناءهن

الذين ضحّوا من أجل العراق.

هذا ما يريده علماء الدين.

169 كالحديقة للعراقيين

والعراقيون كالزهور

وهذه الزهور تنمو من دماء

أولئك الذين قدّموا أرواحهم للعراق

الله أكبر!

هذا هو اليوم الذي يعطي فيه الشيعة أصواتهم

أما علاوي، فقد كان بدوره يغرق القنوات التلفازية العربية بالإعلانات الانتخابية البارعة التي يدفع لها من الصناديق الرسمية، وكانت حكومته قد وعدت مؤخراً بزيادة أجور العمال المدنيين وضباط الشرطة. كانت بطاقته تكسب أرضية في مناطق الأقليات السنية والمسيحية في البصرة، وكذلك في صفوف المهنيين المتعلمين. في الأيام التي سبقت الانتخابات، أخبرني عدد من البصريين أنهم شعروا باندفاع نحو علاوي. كان اليوم السابق للانتخابات عيداً يدعى غدير خم. في عام 632، حين كان محمد ﷺ عائداً إلى المدينة من حجة الوداع، ويُعتقد أنه توقف عند بركة ماء راكد، أو غدير، في الصحراء وأمسك بيد ابن عمه وصهره علي، وقال النبي ﷺ للعالم: «من كنت مولاه فعلي مولاه». المسلمون الذين فسّروا كلمة مولى بمعنى «سيد» واعتقدوا أن علياً هو الخليفة الذي اختاره الرسول ﷺ أصبحوا شيعة لعلي وابنه الحسين وجميع الأئمة من سلالته حتى الإمام الثاني عشر والأخير، المهدي المنتظر الذي سيبشّر ظهوره بنهاية العالم. أما أولئك الذين فسّروا كلمة مولى بمعنى «صديق»، الذين آمنوا برواية مختلفة تماماً لمن يخلف محمداً ﷺ، فقد أصبحوا من السنة. لذا فإن غدير خم يحدّد بداية انشقاق كبير بين المسلمين، وكان الشيعة العرب هم الخاسرين منه عبر التاريخ، حيث عاشوا قروناً تحت السلطة الدينية للخلفاء السنيين، وأخيراً تحت السلطة الدنيوية للسياسيين السنيين حتى في العراق ذي الأغلبية الشيعية. لم ينجح الشيعة في الانضمام إلى الحكومة العراقية الأولى، في ظل الاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن العشرين، بسبب فتوى، وفي أثناء حكم نظام صدام قُتل قادتهم بشكل منظّم. فيما يخص العراقيين العلمانيين، كانت الانتخابات الديمقراطية الفعلية الأولى في

البلاد تعني أنهم يستطيعون أخيراً النجاة من كابوس سنوات صدام والانضمام إلى العالم المتحضّر. أما ما يتعلق بالشيعة المتدينين بعد فاستشهاد علي والحسين، وبعد قرونٍ من الندم والانعزال والمعاناة، فستمنحهم الانتخابات نصيبهم الشرعي من القوة وتصحح خطأً تاريخياً يعود إلى ألف عام.

في يوم الجمعة الذي سبق الانتخابات، في مسجد الحاكمية، الذي يقع أمام شارع تجاري مزدحم قرب مبنى المخابرات المدمّر، قدّم الإمام محمد البصري خطبة الجمعة للرجال الذين احتشدوا في المسجد الصغير. كانت كلماته تدوي عبر مكبّر الصوت إلى الحي المجاور. كان في الحادية والثلاثين من عمره، وكان متخصصاً في علم الأحياء، يضع نظارات ذات إطار مربع، وقد فقد إحدى أسنانه الأمامية. حرص على أن يفهم قومه أهمية أن يوم الانتخابات هو اليوم اللاحق لغدير خم. فالشيعة عادةً يذهبون إلى النجف في يوم غدير خم لزيارة مرقد الإمام علي، لكن هذا العام، بصفة جزء من الجهود الأمنية للانتخابات، سيكون هناك حظر في جميع أنحاء البلاد على سير المركبات بدءاً من ليلة الانتخابات. قال الإمام: «يمكنكم أن تفعلوا شيئاً قد يكون أهم من هذه الزيارة. سنوضّح حقوقنا. وهذا أهم كثيراً من زيارة النجف في اليوم المناسب».

ارتفع صوت الإمام، بينما كان يحاول أن يثير الرجال الجاثين أمامه: «بعد غد يوم الانتخابات، سيكون يوماً عظيماً، وعلينا أن نستعد لهذا اليوم، كما نستعد لأي عيد إسلامي آخر؛ لأن هذا اليوم سيجلب النصر للذين عانوا الظلم. في هذا اليوم ستنتهي معاناة الناس. وفي هذا اليوم سيتخلص الضحية من الشخص الذي أساء إليه». وأعلن الإمام أن الشيعة في يوم الانتخابات سيتبعون مرجعيتهم، علماء الدين، ورثة علي وآله، الورثة الحقيقيين للنبي ﷺ. كانت كلمة مرجع تشبه كلمة النبي، وكان اتّباع المرجعية يعني القبول بخلافة علي، كان هذا هو الرابط الشرعي بين غدير خم ويوم الانتخابات. ثم وصل الإمام إلى النقطة المهمة في الخطبة: «وضعت المرجعية قائمة ودعمتها، وهي الائتلاف العراقي الموحد، الذي يحمل الرقم 169، ورمزه الشمعة، هل من أحد لم يسمعني؟ أريد أن تصل هذه الكلمة حتى إلى مكبرات الصوت الخارجية؛ حتى لا يستطيع أحد أن يقول: إن هذا كذب. ولا أريد أن أسمع أن المرجعية لم تدعم هذه القائمة».

كان الإمام يغامر على أرضية متناقضة (وحين التقيته بعد ذلك، رفض أن يناقش أياً من ذلك). ادّعت الأحزاب الأخرى أن السيستاني الذي لا يشك أحد في أنه ساعد في وضع القائمة رقم 169، بارك جميع القوائم، ورفضت بشدة أن ترى صورته قد بدأت بالظهور على شعارات حملة القائمة 169. لم يقل السيستاني نفسه شيئاً لحسم الخلاف. كان رجال الدين قد ابتعدوا عن ذلك سابقاً. والآن لم يكن الإمام البصري راضياً عن مجرد توضيح الشك بدعم السيستاني للقائمة 169؛ بل إنه أشار إلى أن حكومة علاوي كانت تحاول رشوة الناخبين، وذلك عن طريق زيادة الأجور. قال الإمام: «أنا أذكرك أن الموت قريب من الجميع. لا أحد يعلم متى سيموت، ربما يموت في أي لحظة. فماذا سيقول لله؟ هل سيقول: إنه انتخب قائمة محددة؛ لأنهم أعطوه المال؟ كيف سيقابل ربه بهذه الإجابة؟».

ثم أخبر الإمام قومه بوقت بدء الانتخابات وانتهائها، وبعدد الهويات التي عليهم إحضارها، وكيفية إيجاد القائمة 169 على أوراق الاقتراع، وكيفية الإشارة على المربع الصحيح. وحين بدا راضياً عن توضيح هذه التعليمات ختم الخطبة بقوله: «سيكون الله معكم في ذلك اليوم، فلا تخافوا من أي شيء، لا تخافوا من الإرهابيين. على شيعة الحسين أن يذكروا هذا القول: هيهات منا الذلة وسنذهب للانتخاب».

كان صباح يوم الأحد غريباً وجميلاً. كانت شوارع البصرة هادئة، لدرجة أن الناس قالوا فيما بعد: إنه كان كيوم عيد. كانت الأسر، بمن فيها الأطفال الصغار والشيوخ، يمشون في الدروب، الجميع يرتدي ملابس مرتبة. كان كثير من البصريين الذين تحدّثت إليهم قد ناقشوا مع أسرهم ما سيفعلونه يوم الانتخابات، وهل من الآمن أكثر الذهاب في الصباح أو المساء، وهل من الأفضل خسارة واحد أو اثنين من أفراد الأسرة فقط أو أن تموت الأسرة معاً. وقف رجال الشرطة ورجال الحرس الوطني في تقاطعات الطرق كل بضع مئات من الياردات، وجثم القناصة على سطوح المباني الحكومية في المحافظة. دُهش الناس الذين كانوا في طريقهم لمراكز الانتخابات لرؤية الرجال بالزي العسكري يقومون بأعمالهم بالفعل. بحلول الساعة السابعة والنصف صباحاً، في المدارس التي تم اختيارها مراكز انتخابية، كان الناخبون في صفوف، وكانت الصفوف منظمة والوجوه جادة بعض الشيء. تقدّم الناس للتفتيش دون شكوى كانوا يخفضون أصواتهم باحترام. كان العاملون

في المراكـز الانتخابية –من مدرّسـين وربّات بيوت وخريجين جامعيـين عاطلين عن العمل– يضعون شارات على قمصانهم. سلّموا أوراق الاقتراع بجدّية فيها بعض المبالغة، حيث كانوا يؤدّون عملاً صغيراً لكنه مهم، كأساتذة الجامعة الذين يوزعون أوراق الامتحانات النهائية. كانوا يرشـدون الناخبين؛ ليضعوا السبابة اليمنى في زجاجة الحبر البنفسجي المملوءة حتى المنتصـف. وكان العاملون في مراكز الانتخاب أشخاصاً عاديين في أي يوم آخر، لكن الناس شـكروهم وكأنهـم أبطال عـام 1991. كانت أوراق الاقـتراع ذات اللون البيـج للانتخابات الوطنيـة، والأزرق لانتخابـات المحافظة – كبيرة ومليئة برموز الاحـزاب. كانت تبدو نظيفة وجديدة أكثر من أي شيء آخر رأيته في العراق.

في المدرسـة الجمهورية التي تقع قريباً من شـارع الاسـتقلال، ذهبت شذا محمد علي، وهي ربة بيت في الخمسـين من العمر ترتدي وشاحاً أنيقاً أحمر وأسود، للانتخاب في اليوم الأول. قالت شذا: «أمضيت خمساً وثلاثين سنة من عمري أنتقل من حرب إلى أخرى. والآن آمـالي لأولادي. نحن فقدنا مسـتقبلنا، لكننا نبحث عن مسـتقبل أطفالنا». وقال محسـن هاشـم، وهو مدرّس للغة العربية في المدرسـة ومدير المركز الانتخابي: «لقد عشت أكثر من خمسين عاماً، ولم أشعر بشعور كهذا. أشعر بقشعريرة تسري في جلدي. كان لدينا حضارة عظيمة منذ ستة آلاف عام، وأنا أشعر أننا نثبت إنسانيتنا الآن. نرجو أن تأتي هذه التجربة الديمقراطيـة بهـذه النتيجة، إن الناس هـم المالكون الحقيقيون للقـرارات في هذا البلد». كان يرتـدي سـترةً باليـةً بعض الشـيء وربطة عنق زهريـة، وكان وجهه متوتراً، وشـارباه مقصوصان بعناية. قال هاشم، مشيراً إلى الحي السني في جنوب البصرة: «هناك إشاعة أنهم سمّموا مخزون المياه في الزبير هذا الصباح»، (ثبت أن الإشاعة كاذبة)، «لا يهمنا ما يفعله الإرهابيون. فقد جرّبوا كل شيء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء. وتسميم المياه يظهر أنهم يائسون».

نحو الساعة 8:20، اهتزت المدرسة قليلاً، حين سقطت قذيفة هاون على بعد بضع مئات الأميـال. تمتم أحدهم: قال ليث محمد شـاكر، وهو شـرطي مـرور في الثانية والثلاثين من عمره كان قد أحضـر معه أولاده: «يللا، لا مشـكلة، لا مشكلة؛ ما نفعله الآن هـو عمل عظيم ضد الإرهاب. إنه تحدٍّ لهم: نحن ننتخب، مـاذا بإمكانهم أن يفعلوا؟».

تذكر بعض الناخبين الانتخابات الوحيدة التي عرفوها، المهازل التي كانت تؤكد شعبية صدام. كان لديهم خيار بين مربع يحمل كلمة نعم، وآخر يحمل كلمة لا، وفي بعض الأحيان، كان العاملون في المركز الانتخابي يقومون بالتصويت عنهم ببساطة. أما هذه المرة فإن كثيراً من الناس يمارسون حقهم المكتسب حديثاً بالاحتفاظ بخياراتهم لأنفسهم. لم يقبل فيصل جاسم، وهو عامل متقاعد في شركة نفط أن يكشف عن اختياره. وقد كان من بين المصلين الذين استمعوا إلى تعليمات الإمام البصري. كان الأمر الذي يهمه هو تجربة الانتخاب بحرّية للمرة الأولى في سن السبعين. قال جاسم: «معظم العراقيين لا يعرفون معنى الديمقراطية، هل هي حلوة أم مرّة؟ هل لها مذاق أو رائحة؟ نحن لا نعرف. لكننا سنعرف بعد الانتخابات».

في أحد مراكز الاقتراع، التقيت عبد الكاظم حسين عبود، وهو عقيد في الحرس الوطني يرتدي الزي العسكري، هش البنية، مهيب الوجه، له عينان سوداوان ثاقبتان. كان في السادسة والخمسين من عمره، وقد كان أسير حرب في إيران مدة سبع عشرة سنة، في مقتبل حياته؛ أُطلق سراحه وعاد إلى البصرة قبل يومين من بداية الحرب عام 2003 وكان شديد السعادة لرؤية أولاده الصغار قد كبروا، وأصبح منهم المهندس والطبيب. رفع العقيد عبود أصابعه الأربع، مشيراً إلى أن لديه أربعة أولاد: كانت سبابته ملطخة بالحبر.

كان مترجمي في البصرة طبيباً شاباً حزيناً يعاني السمنة، وكان من بغداد واسمه عمر. بعد سقوط القذائف الأولى على المدينة في آذار عام 2003، بقي عمر في المشفى الذي كان يعمل فيه ثلاثة أسابيع لمعالجة الجرحى، ثم لطرد الناهبين حين انهار النظام؛ وفي النهاية كان واحداً من خمسة أطباء لم يتركوا الخدمة. كان يملّ بسهولة، حتى في أثناء الاحتلال، حين كانت الانفجارات التي لا تنتهي والأعداد الكبيرة للإصابات تعني أن كل طبيب شاب يصبح مختصاً في الجروح الصعبة. قال عمر، السني العلماني الذي لا يملك آراء سياسية قوية: إن يوم الانتخابات كان «مجرد يوم آخر». كان يشعر كذلك إلى أن قال فجأة، بينما كنا على وشك مغادرة أحد مراكز الاقتراع، بعد الحديث مع عدد من الناخبين: «انتظر أرجوك!» عاد إلى الداخل، وطلب من موظفي المركز أن يسمحوا له بالانتخاب، على الرغم من أنه مسجّل في بغداد. خرج عمر البارد متوهجاً، وقال: «لدي شعور رائع!».

عاش والده في العامرية، وهو حي يقع غرب بغداد قرب طريق المطار الخطر الذي كان يُعرف بأنه مُستنبت التمرّد. لم يكن أحد في الأسرة يعرف أن عمر يعمل مع الغربيين للحصول على الرزق. كان طوال الصباح يحاول الاتصال بالبيت؛ ليعرف إن كانت أسرته قد انتخبت، وفي الظهيرة دهش حين سمع أن والدته وإخوته، بعد أن نظروا من الباب الأمامي فوجدوا جيرانهم يخرجون إلى الشارع، أسرعوا إلى مركز الانتخاب هم أيضاً. عادوا إلى البيت بأمان، وقبل أن يحل الليل حتى والده، الضابط المتقاعد الذي أصبح متطرفاً سنياً في السنوات الأخيرة، حسدهم على أطراف أصابعهم الأرجوانية، وعلى الإثارة الهائلة التي تنتشر في بغداد وفي معظم مدن العراق، لدرجة أنه ذهب أيضاً للانتخاب. أما علي، صديق عمر المقرّب، الذي كان يعيش أيضاً في العامرية، فقد قام بثلاث محاولات للانتخاب، في المرة الأولى، وصل علي إلى منتصف الطريق حين رأى صديقاً له يُعرف بتعاطفه مع التمرّد فحيّاه بشك وسأله: «أين أنت ذاهب؟». فقال علي: «سأحضر بعض الخبز». قال صديقه: «سأذهب معك. فذهب علي إلى المخبز؛ ليحضر رغيفاً من الخبز لم يكن بحاجة إليه. وبعد بضع ساعات، حاول مجدداً، فأوقفه بعض الرجال الخارجين من المسجد قائلين: «أين أنت ذاهب؟» فقال: «إلى الصيدلية، لأحضر الدواء لعمتي». قال الرجال: «سنذهب معك». وحين وصلوا إلى الصيدلية ادّعى علي أنه نسي الوصفة في البيت. وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، حين كانت مراكز الاقتراع تستعد لإغلاق أبوابها، حزن علي الذي كان يشاهد الناس على شاشة التلفاز طوال اليوم يصطفّون للاقتراع، واتصل بعمر في البصرة. أرشده عمر بصبر إلى مركز انتخابي على بعد ميلين في الشوارع الخلفية للعامرية، وحين وصل علي وجد أنه ليس مركزه الانتخابي: فقد كان من المفترض أن ينتخب في المدرسة التي خلف بيته. وما إن وصل إلى البيت حتى مسحت أمه بذعر الحبر عن إصبعه بالكلور.

عدت إلى المدرسة الجمهورية في البصرة قبل إقفال مراكز الانتخاب، عند الغسق. كان آخر الناس في الصف هو عبيد حميد، وهو شرطي كان مشغولاً طوال اليوم لدرجة أنه كاد ينسى الانتخاب. قال حميد: «ليس المهم من أختار. أنا أريد المشاركة فقط». أغلقت البوابة الخارجية، وسمح لي بالبقاء لمشاهدة فرز الأصوات. تم جمع أوراق الاقتراع في حزم من خمس وعشرين ورقة، ثم وضعت، واحدة تلو الأخرى على طاولة خشبية وسط غرفة

رياضيات للصف السادس. كانت يد الشخص الذي يقوم بالعدّ، وهو مدرس رياضيات اسمه صالح يونس مهدي، مشوّهة: لم يكن لديه إلا الأصابع الثلاث الوسطى وكانت ذات غشاء واحد. كانت يده تمر بسرعة على الأوراق كالمسطرة، وكان يضرب الورقة حين يصل إلى المربع، ثم يقول الرقم. أما أحمد صالح مهدي، وهو مدرّس عجوز للصف الأول، فقد وقف بصمت عند السبورة، وكان يسجّل الأصوات في مجموعات من خمسة أصوات. ووقف المراقبون من الأحزاب ومن لجنة الانتخابات ينظرون إليهم. وحين انقطع التيار الكهربائي، كما هو متوقع، أشعلت المصابيح الزيتية، وأصبحت في غرفة الصف ظلال طويلة ووجوه مضاءة.

كان العدد النهائي في المدرسة الجمهورية 721 لقائمة علاوي، و595 لقائمة السيستاني، وعدد من الأصوات الموزعة على الآخرين. كان العدد الكلي لأوراق الاقتراع الموزّعة أكثر من الأصوات التي تم إحصاؤها باثنين، وهكذا وقف الرجال حول الطاولة التي في وسط الغرفة نصف ساعة أخرى، يعيدون الحسابات مراراً، إلى أن اكتشفوا أن هناك ورقتين فارغتين. وهكذا انتهى كل شيء على النحو الصحيح.

حرّر وصول الأمريكيين والبريطانيين عام 2003 العراقيين من صدام، لكنه لم يحرّرهم من شكوكهم وأحزانهم ومخاوفهم. كان نصراً للأجانب. واستغرب المحتلون سبب الترحيب بهم بخشونة وليس بامتنان. كان التحرير، بشكل ما، مذلاً، وجلب في السنتين اللاحقتين مزيداً من الكوارث. في يوم الانتخابات، لم تكن القوات الأجنبية تُرى في أي مكان، وحين ذهب العراقيون للتصويت، كان ذلك أخيراً إنجازاً لهم.

بعد يومين من الانتخابات، عدت لرؤية ماجد الساري، ووجدته مبتهجاً. بعد سقوط النظام، مع كل النهب والعنف، كان خجلاً من بلده، لدرجة أنه لم يحضر أسرته إلى البصرة، وكان يفكر في العودة إلى السويد إذا كانت نتيجة الانتخابات تعني خسارته لوظيفته في وزارة الدفاع. أما الآن فقد صمّم على البقاء: فقد علم أن العراقيين يستحقون أن يحارب لأجلهم. «أظهرت الانتخابات قوة الأفكار الدينية هنا. سأبقى وأحارب تلك الأفكار السيئة. فالحرب تتغير من حرب ضد العنف والتفجيرات إلى نوع جديد، هو حرب الأفكار».

بعد بضعة أيام، بدأت الغبطة من الانتخابات تزول مع زوال الحبر عن السبابات. كسبت قائمة السيستاني نصف الأصوات في جميع أنحاء العراق، وربحت 70% في البصرة. أما قائمة علاوي فقد نالت 15% في أنحاء العراق و20% في البصرة. في انتخابات المحافظة، فاز الائتلاف الشيعي المحلي بثلث الأصوات، واحتل حزب الفضيلة الدرجة الثانية، واحتلت قائمة علاوي الدرجة الثالثة. أما ائتلاف الأحزاب الصغيرة التي جمعها جودت العبيدي، صاحب شركة الليموزين السابق من بورتلاند، الذي حضر ورشة العمل في الحلة، فلم يسجّل حتى في النتائج الوطنية. جعل نجاح الأحزاب الدينية مؤيدي علاوي وغيره من المرشحين العلمانيين مذهولين، وعزا بعضهم النتيجة إلى إساءة استخدام اسم السيستاني وصورته. وقال بعض العراقيين: إن محمد رضا، ابن السيستاني والمتحدث باسمه، قد اضطرب عشية الانتخابات، وأمر الأئمة بالموافقة على القائمة 169 بشكل رسمي. (لكن مكتب السيستاني أنكر ذلك). كانت تلك مفاجأة غدير الخم. وفي الفرصة الأولى «لإعطاء أصواتهم» أطاع معظم الشيعة قادتهم الدينيين.

زرت مكتب الباشجي في بغداد؛ لأرى كيف سيمر العراق بهذا الحدث الخلافي، الذي أصبح فيه الخاسرون التاريخيون في البلاد رابحين، وأصبح فيه الرابحون خاسرين. كان هناك شعور بالتحوّل خارج العراق: فالدول العربية المجاورة للعراق كانت قلقة من ظهور الشبح الإيراني والتأثير الشيعي في الشرق الأوسط، مما يفسد النظام السني. قال لي الباشجي، الرجل ذو الأفكار الليبرالية: «آمل ألا تعود هناك سياسة سنية في العراق. لا أعتقد أنه يجب أن يكون هناك سياسة شيعية، أيضاً. لا نريد أن نكون كلبنان. أعتقد أن سيطرة الشيعة أمر مؤقت. فالغالبية الشيعية ستبتعد في النهاية عن الأحزاب الدينية. إنه ضلال. وسترى. أعتقد أن العراقيين سيعودون إلى جذورهم العلمانية عاجلاً غير آجل».

كان الباشجي مشغولاً بعقد اجتماعات مع السياسيين والقادة الدينيين من السنة؛ ليبحث فيما يمكن فعله لإدخالهم وناخبيهم في اللعبة السياسية. قال الباشجي ضاحكاً: «قالوا: إنهم متحمّسون لتصحيح هذا الخطأ الذي ارتكبوه بعدم المشاركة في الانتخابات دون أن يعترفوا بذلك طبعاً»، كان الباشجي يعمل وسيطاً بين المجموعات المهمّشة وبين المراكز الجديدة للقوة، محاولاً إيجاد صيغة يستطيع القادة السنة عبرها المشاركة في كتابة دستور عراقي

جديد على الرغم من افتقادهم للتمثيل في المجموعة. وهذا من شأنه أن يكبح الطائفية الشيعية، ويقدّم طريقة للسنة الذين تعبوا من القتال؛ ليشاركوا في السياسة. زاد التصويت من الانقسامات الإثنية والدينية، وأبعد الأمريكيين أكثر عن مركز الحياة السياسية في العراق. في اجتماع لشيوخ العشائر في بغداد بعد عدة أسابيع من الانتخابات، قال عربي سنّي من كركوك: «ليس الأمريكيون هم المشكلة. نحن نعيش تحت احتلال الأكراد والشيعة. وقد حان الوقت لمحاربتهم». أصبحت كركوك من جديد نقطة الصفر للحرب الأهلية المخيفة والمهددة والمرجوّة. وأعلن زعيم عشيرة أخرى في الاجتماع أن: «الأكراد يطالبون بكركوك. وبعد ذلك سيبدؤون بالمطالبة ببغداد. إن صدام حسين هو الذي أعطى الأكراد أكثر مما يستحقون». وقال: إن العرب سيثورون قريباً: «آخر الدواء الكي».

لم يشارك د. باهر بطي في الانتخاب، فقد كان حي الدورة الذي يعيش فيه في بغداد خطراً جدًّا. لكن حين التقيته بعد الانتخابات كان لديه بعض الأخبار: فقد كانت فكرته القديمة عن مركز جلجامش للتفكير الإبداعي ستأخذ شكل عيادة نفسية جديدة توشك أن تفتتح، بتمويل عراقي أمريكي، قرب الملعب الأولمبي في نادي عدي الاجتماعي. وسيسمح مركز الجنة الذي يضم عشرين سريراً للمرضى الداخليين وخمسين مريضاً خارجياً، للبطي بتدريس التقنيات المتطورة لعشرة من المختصين النفسيين والعاملين الاجتماعيين من الموظفين لديه، وبتقديم رعاية جيدة لأمراض العقول العراقية.

بعد نحو عامين، كان البطي لا يزال يضمر شكوكاً بشأن الأمريكيين. وقبل أن نفترق، سألني للمرة الخامسة أو العاشرة إن كان هناك خطة خلف الفوضى التي سمح لها المحتلون بالسيطرة على بلاده. وقال: «أنا لست مذعوراً، لكن هذا مجرد سؤال». فاتفقت معه على أنه سؤال، وقلت: إن الفوضى على حد علمي كانت أسوأ من جريمة، وإنها خطأ فاحش. لكن الأمريكيين كانوا أمراً واقعاً في العراق، وكان البطي يعوّل عليهم لمنع الشيعة المتدينين من الحصول على كثير من السلطة، ولحماية المصالح الأمريكية التي تلاقت مع مصالحه.

قال البطي: «إنها لعبة روليت روسية، نحن نغادر كل صباح، ولا نعرف إن كنا سنعود للبيت. لقد اعتدنا هذه اللعبة؛ لذا فنحن نستمر فيها».

أدلت أسيل بصوتها في الانتخابات. مشت هي ووالداها ست ساعات عبر المدينة إلى الأدهمية، حيّهم القديم، حيث تم تسجيل بطاقاتهم التموينية، وعادوا بعد ذلك. كانت أسيل ترتدي عباءة سوداء طويلة وحذاء رياضياً، ومشت الأسرة في شوارع الأدهمية بعد صدام وسط النظرات غير الودية من شباب المنطقة. كانت أسيل خائفة لكنها متحدّية، وحين وصلوا أخيراً إلى مركزهم الانتخابي، منحت صوتها لقائمة السيستاني؛ لمجرّد أنها كانت تضم أحمد الجلبي، الذي كانت تعوّل عليه للقضاء على البعثيين إلى الأبد.

وحين رأيتها بعد الانتخابات، كانت قد استبدلت بالعباءة بذلة زرقاء متألقة، تنورتها إلى الركبة وسترة ذات حشوة للكتفين، وكنزة كريم ذات قبة عالية، وجوارب، وحذاء ذا كعب عالٍ. كما أنها كانت تضع أحمر شفاه ومسكارا والكثير من الحلي. جلسنا معاً في حديقة فندق فلسطين، واستمتعنا بشمس الشتاء المعتدلة، وحلّت ضفيرتها وتركت شعرها ينساب في الضوء الذهبي. كان هناك شيء مختلف في أسيل، وكأنها تخلصت من عبء ثقيل. كانت تعمل سكرتيرة في وزارة بالمنطقة الخضراء (لم تكن هناك متابعة، لمقابلتها مع كنعان مكية)، وقد عرض عليها رجل يعمل معها في المكتب الزواج. كان وسيماً لكنه ممل، فعرفت أنها لن تستطيع أن تحبه وأخبرته بذلك، لكنها قبلت أن تدعه يأتي مع أسرته لزيارة أسرتها. جلسوا في غرفة الجلوس في بيت أهلها الذي شيّدوه حديثاً، وبينما كان أهلها وأهله يناقشون موضوع المهر، تخيلت أسيل الحياة مع هذا الرجل: حالما يتزوجان، سيخلف بكل وعوده لاحترام استقلالهما الروحي، ويبدأ بجعلها ربة بيت عراقية، فانهمرت الدموع من عينيها، وملأتها الفكرة بالخوف لدرجة أنها تخيلت أن الأمر سيكون أشبه بالعيش تحت حكم صدام من جديد. وللمرة الأولى من شهور، تذكرت بالضبط كيف شعرت. لم تستطع أن تدع ذلك يحدث. لم تقل شيئاً في ذلك اليوم، لكنها عرفت أنها سترفض العرض.

قالت أسيل، بينما كانت تخرج من الفندق لتودعني في الشارع: «أريد أن أسافر، عقلي لا يتناسب مع هذا المجتمع؛ فأنا أريد مزيداً من الحرية».